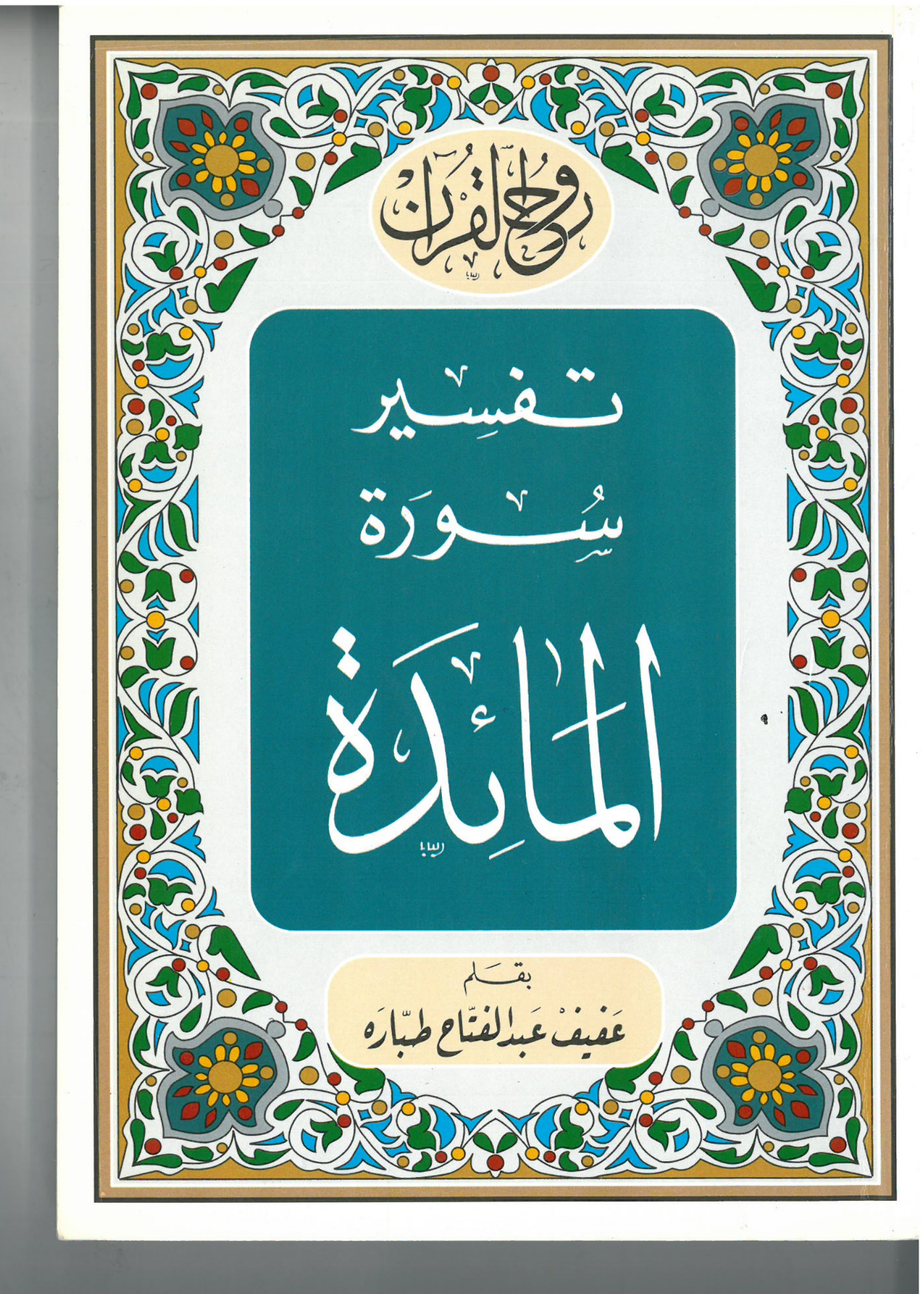


روح القرآن
تفسير
سورة
المائدة
بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ:

إنَّ أفضلكم مَن تعلَّم القرآن وَعلَّمه

روح القرآن

تفسير سورة المائدة

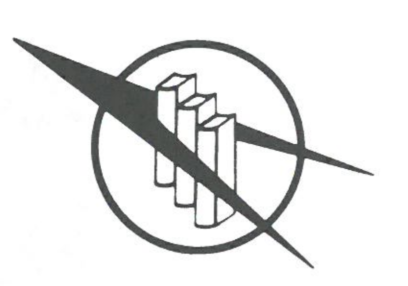
بقلم

عفيف عبد الفتاح طبّارة

دار العلم للملايين

مؤسّسة ثقافيّة للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الطبعة الأولى

كانون الثاني / يناير ٢٠٠٥

تنضيد وإخراج: **المجموعة الطبّاعية**
هاتف: ٨٢٤٢٠٣ ـ ٨٢٣٧٢٠ (٠١)
بيروت ـ لبنان

هذه السورة

سورة المائدة مدنية أي نزلت بالمدينة المنورة وهي من أواخر القرآن نزولاً، وسميت بذلك لأنها تحدثت عن المائدة التي طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن ينزّلها الله عليهم.

وقد اشتملت هذه السورة على كثير من الوصايا والأحكام نذكر بعضها:

- الدعوة إلى الوفاء بالعهود والمواثيق، وبيان المواثيق التي أخذها الله على بني إسرائيل ثم نقضوها.
- بيان ما أحله الله للمؤمنين من الأطعمة وما حرمه عليهم، وَذِكْرُ ما حرمه العرب على أنفسهم بدون حق ولا تشريع من الله.
- قصة ولدي آدم قابيل وهابيل وإقدام قابيل على قتل أخيه بدافع الحسد وهي أول جريمة تُرتكب على الأرض.
- بيان لأحكام الوضوء والطهارة وفوائدهما ويُسر الشريعة في ذلك.
- حكم الصيد برًّا وبحراً في حرم مكة وفي حالة الإحرام لمن يؤدي الحج أو العمرة.
- الدعوة إلى التعاون على البرّ والتقوى مما يستلزم إنشاء الجمعيات

الخيرية لصالح الأمة، وتحريم التعاون على الإثم والعدوان الذي يضر بمصالح الأمة.

- عصمة الله لرسوله محمد ﷺ من أن يضره أحد من الناس أو يقدروا على صده عن تبليغ رسالة ربه، ووقاية الله له مما حيك له من المؤامرات وما دبّروا له من الاغتيالات.
- النهي عن سؤال النبي عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أُبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف الشرعية عليهم، أو كشف بعض الأمور التي فيها فضيحة لبعضهم.
- عقوبة قطّاع الطرق والسرقة وأثر ذلك في القضاء على الجريمة التي تهدد أمن المجتمع.
- كفارة اليمين وكيفية التحلل منها.
- علاقة المسلمين بأهل الكتاب بإباحة الأكل من ذبائحهم والزواج من العفيفات من نسائهم.
- بيان بالمعجزات التي أيّد الله بها رسوله عيسى عليه السلام وأنها حصلت بإذن الله تعالى.
- التشديد على الالتزام بالعدل حتى مع الأعداء.
- تحريم الخمر والقمار وما ينشأ عنهما من أضرار دينية ودنيوية.
- حكم الوصية للمحتضر إذا كان في سفر.
- إحجام بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة التي أمرهم الله بدخولها، وعقوبة الله لهم بالتيه في صحراء سيناء أربعين عاماً.

كما تشتمل هذه السورة على كثير من الوصايا لم نذكرها خوفاً من التطويل وسيأتي الكلام عنها فيما بعد.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

شرح المفردات

أوْفوا بالعقود: الوفاء هو الإتيان بالشيء وافياً، والعقود: العهود الموثقة.

بهيمة الأنعام: البهيمة هي ما لا عقل له من الحيوان وخصصت ـ في العرف ـ بذوات الأربع قوائم، والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم والماعز. وأُلحق بها ما يماثلها في الاجترار كالظباء وبقر الوحش.

إلاّ ما يتلى عليكم: إلا ما سيتلى عليكم تحريمه في الآية رقم «٣» من هذه السورة.

غير محلّي الصيد: غير محلّلين الصيد والانتفاع به.

وأنتم حُرُمٌ: وأنتم في حالة الإحرام للحج أو العمرة.

دعوة المؤمنين للوفاء بالعهود

يستهل الله هذه السورة بدعوة المؤمنين إلى الوفاء بالعهود:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ خاطب الله الذين اتبعوا رسوله محمداً واصفاً إياهم بصفة الإيمان ليحثهم على امتثال ما يكلفهم به. يقول عبد الله بن مسعود وهو من أعلام الصحابة: إذا سمعت الله يقول: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** فأرعها سمعك فإنه خيرٌ يأمر به أو شرٌ ينهى عنه **﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾** وماذا يأمرهم الله به؟ إنه يأمرهم بالوفاء بالعقود وهي العهود، والمراد بها جميع ما ألزمه الله تعالى على عباده، وأمرهم به من التكاليف والأحكام الدينية من تحليل ما أحله، وتحريم ما حرمه، لأن المؤمن بمقتضى إيمانه قد عاهد الله على طاعته والأخذ بكل ما أمر به، وترْك كل ما نهى عنه.

وتشمل العقود ما يعقده الإنسان مع غيره من عقود واجبة الوفاء، كعقد التحالف، وعقد الشراكة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقود المصالحات والمهادنات في الحروب، والتعاقد على نصرة المظلوم.

ومن العقود ما يلزم به المسلم نفسه من نذر وطاعات فإنه يجب الوفاء بها ما لم تكن فيها معصية لله.

والوفاء بالعهود من أنبل الصفات التي تضفي الخير والأمن على علاقات الناس فيما بينهم، ولهذا استهلّ الله هذه السورة بالدعوة إلى الوفاء بها، لأن عدم الوفاء بها هو غدر ونقض للعهود وهذا يتنافى مع شيم المؤمنين.

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ والبهيمة: هي ما لا عقل له من

الحيوان ذي الأربع قوائم، وقد خصصها العرف بما عدا السباع، وسميت بهيمة لجهة عدم نطقها وفهمها، والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم والمعز. والمعنى: أحل الله لكم ـ أيها المؤمنون ـ أكل بهيمة الأنعام وما يماثلها من الحيوانات المجترة كالظباء وبقر الوحش **﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾** إلا ما سيُتلى عليكم تحريمه من المآكل وهو ما سيرد في الآية الثالثة من هذه السورة **﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾** أي من غير أن تستحلوا الصيد المباح لكم، ولكن حرمه الله عليكم في حال **﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾** أي وأنتم محرمون[1] بحج أو عمرة سواء أكنتم في الحرم[2] أم خارجه، كما لا يحل الصيد لمن كان في الحرم ولو لم يكن محرماً **﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾** إن الله سبحانه يقضي في خلقه بما يشاء من تحليل وتحريم حسب حكمته وما يريد به الخير لعباده.

والجدير بالذكر أن هذه الأحكام كلها جاءت في آية واحدة وهي على قلة ألفاظها فيها من البلاغة ما يعجز أن يعبر عنه أرباب الفصاحة والبلاغة، فقد اشتملت على عدة أحكام، **الأول**: الأمر بالوفاء بالعهود. **الثاني**: تحليل أكل بهيمة الأنعام. **الثالث**: استثناء ما لا يحل الأكل منه. **الرابع**: تحريم الصيد على المحرم.

---

(١) **محرمون**: تقال لمن كانوا في حال الإحرام، والإحرام ركن من أركان الحج أو العمرة، فإذا أراد الإنسان الحج أو العمرة أحرم من الميقات وهو المكان الذي حدده رسول الله لمن يأتي إلى الكعبة حاجاً فيخلع ثيابه العادية ويلبس لباساً خاصاً بالإحرام غير مخيط عبارة عن رداء وإزار ويمتنع عن كل العلاقات الجنسية والتطيب والزينة وغيرها مما جاء ذكره في شروط الإحرام.

(٢) **الحرم**: هو المكان المحيط بمكة وهو الذي لا يصاد صيده ولا يقطع شجره ولا ينتفع بلقيطته، وهو الذي حدده نبي الله إبراهيم عليه السلام ونصب أنصاباً تُعرف بها حدوده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

شرح المفردات

لا تحلوا: لا تنتهكوا ولا تستبيحوا.

شعائر الله: جمع شعيرة وهي العلامة، والمراد ما جُعل علامة للنسك من مواقف الحج أو فرائض دين الله وأحكامه.

الهدي: ما يهدى إلى الحرم الشريف من الأنعام ليذبح هناك وينتفع به الناس.

القلائد: جمع قلادة وهي ما يعلّق في أعناق الأنعام من لحاء الشجر أو حبل أو نعل ليُعلم بأنها هدي فلا يتعرض لها أحد بغصب.

آمّين: قاصدين.

حللتم: خرجتم من إحرامكم.

ولا يجرمنكم: لا يحملنكم.

شنآن قوم: بغضكم إياهم.

البِرّ: كلمة تجمع وجوه الخير.

العدوان: التعدي.

المحافظة على شعائر اللّه والالتزام بها

ثم ينتقل القرآن إلى التحذير من انتهاك حرمة شعائر الله والاستهانة بها:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تُحِلّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ وإحلالها: انتهاكها أو

تركها، وإهمال ما يجب فعله، فمن يفعل عملاً منهياً عنه فقد أخلّ بشعائر الله. وشعائر: جمع شعيرة بمعنى العلامة، وشعائر الله ما جُعل علامة للعبادة في مناسك الحج وقيل: شعائر الله هي شرائع الله ومعالم دينه، وإضافة الشعائر إلى الله لتشريفها.

فالله سبحانه نهى المؤمنين أن ينتهكوا حُرمة أيّة شعيرة من شعائر دين الله في الحج أو في سائر الفرائض والتكاليف التي أوجبها الله على عباده **﴿وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ﴾** أي ولا تستبيحوا وتنتهكوا القتال في الشهر الحرام، والمراد به جنس الأشهر الأربعة وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وسمي الشهر بالشهر الحرام باعتبار أن إيقاع القتال فيه حرام، وهذه الأشهر لا يحل القتال فيها، فلا يبدأ المسلمون القتال فيها ولكن يدافعون عن أنفسهم إن اعتُدِيَ عليهم فيها. **﴿ولا الهَدْيَ وَلاَ القَلائِدَ﴾** أي ولا تعترضوا الهدي ولا القلائد بنحو غصب أو سرقة أو حبس. والهدي هو ما يُهدى من الأنعام إلى البيت الحرام ليُذبح هناك، والقلائد: هي ما يقلّد به الهدي من الأنعام ليُعرف أنها هدية إلى البيت الحرام.

وقد كان الحجاج يضعون في أعناق الهدي من الأنعام ضفائر من صوف أو يربطون بأعناقها نعالاً أو قِطَعاً من لحاء الشجر أو غير ذلك ليُعلم أنها هدْي إلى بيت الله الحرام فلا يتعرض لها أحد بسوء، ومن الفقهاء من خص القلائد بالإبل والبقر فلا يقلّد سواها، وخصت القلائد بالذكر تشريفاً لها واعتناء بشأنها والثواب فيها أكثر.

والسر في الدعوة إلى إهداء الأنعام إلى بيت الله الحرام هو أن مكة تقع في وادٍ غير ذي زرع والحجاج كثيرون وهم يحتاجون إلى الطعام

لذا جعل الله إهداء الأنعام إلى بيت الله الحرام من شعائر الله للتوسعة على عباد الله وسكان بيت الله الحرام.

﴿وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ المراد بهم المؤمنون الذين يقصدون بيت الله للحج والعمرة فلا يجوز لأحد أن يمنعهم بسبب نزاع أو خصام لأن بيت الله يجب أن يكون مفتوحاً لكل قاصد للحج.

وقد بيّن الله مقصد هؤلاء المؤمنين بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ أي يطلبون ثواب الله ورضوانه ﴿وَإِذَا حَلَلْتُم فَاصْطَادُوا﴾ والحلّ يكون بفعل الإنسان ما يخرج به من الإحرام فيحل له ما كان محظوراً على المحرم بالحج والعمرة. ويكون التحلل من الإحرام عند جمهور الفقهاء برمي جمرة العقبة والحلق أو التقصير، ويباح بهذا التحلل لبس الثياب والصيد وكل شيء ما عدا النساء وهذا هو التحلل الأول. ولكن الصيد يكون في غير أرض الحرم.

﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُم عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾[1] أي لا يحملنكم ـ أيها المؤمنون ـ بغضكم لقوم كانوا قد صدوكم سابقاً عن الوصول إلى المسجد الحرام وعن أداء العمرة فيه عام الحديبية على الاعتداء عليهم بعد ذلك بغير حق.

وقد يقال إن اعتداء المشركين على المؤمنين كان قبل أن يدخلوا الإسلام، فكيف يتصور أن يعاملهم المؤمنون بما كان قد صدر منهم سابقاً، والإسلام يمحو ما قبله من الآثام؟ والجواب: إن جرح النفس قد يستمر أثره لذلك نهى الله المؤمنين أن ينقادوا لغريزة الانتقام وطلب

(١) **جرم يجرم**: بمعنى كسب، غير أن كسب يستعمل في كسب ما لا خير فيه، ويقال: جرمني كذا على بغضك أي حملني عليه.

منهم أن يكون سلوكهم قائماً على العفو والصفح.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ البِرّ: هو التوسع في فعل الخير والصلاح والصدق وإسداء المعروف إلى الناس، والتقوى: اتقاء عذاب الله وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. فالتعاون على البر والتقوى يتناول المؤازرة في كل عمل ينتج عنه الخير للأمة، كالتعاون لإنشاء الجمعيات الخيرية ودور الأيتام والعجزة، وبناء المستشفيات والمدارس. فالإسلام جعل التعاون أساساً لتحقيق البر والتقوى في حياة الناس لأن كثيراً من حالاتهما لا يمكن تحقيقه بجهد فردي، والإنسانية في مسيرتها الطويلة لم تصل إلى رقيها الفكري، ومستواها الاجتماعي المتطور إلا بفضل الجهود المتعاونة على الأعمال النبيلة.

﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ والإثم[1]: يطلق على كل ذنب ومعصية. والعدوان: هو مجاوزة حدود الله والاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم.

فالتعاون على الإثم والعدوان يهدمان الحياة الفاضلة ويحولانها إلى غابة تسود فيها شريعة الغاب، والقوة الغاشمة الظالمة، ويصبح الحق دائماً مع الأقوى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي تجنبوا عذاب الله بالعمل الصالح وترك ما نهاكم عنه لئلا تستحقوا عقاب الله وأليم عذابه بسبب مخالفة أمره وعصيانه.

(١) فسر النبي ﷺ الإثم بقوله: «الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» أخرجه مسلم فعندما يقدم الإنسان على فعل أمر ما ويخشى أن يراه الناس فهذا هو الإثم لأنه لو لم يكن إثماً لما حرص على ستره عن أعين الناس.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ
اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي
مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

شرح المفردات

وما أُهِلّ لغير الله به: ما ذكر على ذبحه غير اسم الله تعالى بصوت مرتفع.
والمنخنقة: هي التي ماتت خنقاً.
الموقوذة: هي البهيمة التي تضرب بعنف وشدة حتى تموت (الوقذ: شدة الضرب).
المتردية: هي التي سقطت من علوٍّ فماتت.
النطيحة: هي التي ماتت بفعل النطح من حيوان آخر.
السبع: كل حيوان مفترس.
ما ذكّيتم: إلا ما أدركتم ذبحه وفيه بقية حياة.
ذُبح على النُّصُب: النصب أحجار نصبوها حول الكعبة كانوا يعظمونها.
تستقسموا: تطلبوا معرفة ما قُسِمَ وقُدّر لكم.
بالأزلام: واحده زلم وهو قطعة من الخشب على هيئة سهم وكان عددها ثلاثة، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث: ليس عليه شيء. كانوا يقترعون بها عند الإقدام على عمل ما.
فسق: خروج عن طاعة الله.
مخمصة: مجاعة.
متجانف لإثم: مائل إلى الإثم.

المحرمات من المآكل والأفعال

وبعد أن ذكر الله أنه أباح للمؤمنين الأكل من بهيمة الأنعام، شرع بعد ذلك في بيان المحرمات منها، قال الله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ حرم الله أكل ﴿الْمَيْتَةِ﴾[1] وهي التي ماتت ميتة طبيعية بدون تذكية شرعية - أي بدون أن تذبح - والميتة لا تموت غالباً إلا نتيجة مرض وهذا المرض يجعل لحمها مضراً بالإنسان، وأمّا إذا كانت الميتة بسبب الشيخوخة فضررها كضرر الميتة لأن الشيخوخة معناها ضعف وانحلال في أنسجة الجسم وخلاياه، وقد تكون الشيخوخة بمرض تدريجي غير منظور يُحدث تغيرات في لحوم الحيوان تقلل من قيمته الغذائية أو تضرّ بآكله أو تسمّمه ﴿والدَّمُ﴾ وحرم الله تناول الدم والمراد به الدم المسفوح أي المائع الذي يسيل من الحيوان لجرح أو عند الذبح وإن تجمد بعد ذلك بخلاف الدم الجامد في أصل خلقته كالطحال والكبد وما يتخلل اللحم عادة من دم فلا يحرم ذلك.

والدم ضارّ بالصحة إذا استعمل غذاء فالتحليل أثبت أن الدم يحوي كمية كبيرة من «حمض البوليك uric acid» وهو مادة تضر بالصحة إذا استعملت غذاء.

وقد يكون في الدم جراثيم وفيروسات بعض الأمراض المعدية فيكون في ذلك الضرر الكبير لمن يتناوله، وهذا هو السر في فرض الإسلام ذبح المواشي من الوريد الرئيسي في العنق حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان.

(١) يستثنى من أكل الميتة السمك والجراد كما جاء في الحديث الشريف فإنه يحل أكلهما.

﴿ولَحْمُ الخِنْزِيرِ﴾ وحرم الله أكل لحم الخنزير لأنه يحوي في جسمه عدداً كبيراً من أنواع الطفيليات كما يصاب بأمراض شتى، وهذه الطفيليات والأمراض تنتقل إلى الإنسان إذا ما أكل لحمه.

فمن الطفيليات الشائعة في لحم الخنزير الترخينة (Trichinella Spiralis) وهي نوع من الديدان السلكية المدورة تنتقل إلى الإنسان وتسبب داء مميتاً له يدعى داء الترخينة.

وأكثر الطفيليات خطراً في لحم الخنزير هي الديدان السلكية المدورة وأشدها ضرراً هي الصفرية أو حية البطن. ومن الطفيليات أيضاً في لحم الخنزير الدودة السوطية التي تلتصق بجدار المصران الأعور، وديدان الرئة التي تسبب التهاب الرئة.

ومن الأمراض التي تصيب الخنزير: كوليرا الخنزير والحمى المتموجة (Brucellosis) التي تصيب الفقرات الظهرية والمفاصل والخصيتين.

هذه نبذة عن بعض الأمراض والطفيليات التي تصيب لحم الخنزير وتنتقل بالعدوى إلى الإنسان(١).

ويتابع الله ذكر المحرمات بقوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ والمُنْخَنِقَةُ وَالموْقُوذَةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ وَمَا أكَلَ السَّبُعُ إلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

---

(١) نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٠ تحت مادة خنزير Pig المجلد السابع عشر. وكذلك تحت مادة Trichinosis في المجلد الثاني والعشرين، وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في كتابنا «الخطايا في نظر الإسلام» فليرجع إليه من يريد الإحاطة بأضرار لحم الخنزير.

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ والإهلال: رفع الصوت، فقد كان المشركون قبل الإسلام إذا ذبحوا الأنعام رفعوا أصواتهم بغية التبرك بآلهتهم قائلين: باسم اللات، أو العزى، أو مناة، وهي أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها، فالحكمة من تحريم لحوم هذه الذبائح أنها ذُبحت باسم الأصنام لا باسم الله تعالى، لأن الإسلام يريد أن يحمي أهله من كل مظاهر الإشراك بالله، ولأن الذبائح لا يصح أكلها إلاّ إذا ذُكِرَ اسم الله وحده عليها.

﴿والمُنْخَنِقَةُ﴾: وهي البهيمة التي تموت خنقاً سواء أكان بفعلها كأن تُدخِل رأسها في موضع لا تستطيع التخلص منه فتموت، أم بفعل غيرها.

﴿والمَوْقُوذَةُ﴾: وهي التي تُضرب بعصاً أو بحجر أو بحديدة حتى تموت، وكانوا في الجاهلية قبل الإسلام يضربونها بالعصيّ حتى تموت فيأكلوها.

﴿والمُتَرَدِّيَةُ﴾: وهي التي سقطت من علوٍّ إلى أسفل فماتت من التردي، ومثلها التي وقعت في بئر فماتت.

﴿والنَّطِيحَةُ﴾: وهي التي نطحتها بهيمة أخرى بقرنيها أو برأسها فماتت من تأثير النطح. والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة هي كلها لحوم ميتة ماتت من مسببات قاسية، أو جروح تسربت إليها الميكروبات وجعلت لحمها مضراً، وخصوصاً أن دمها ما زال فيها.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي ما افترسها السبع وأكل منها فلا يؤكل ما بقي منها. وكذا الحكم لو افترسها فماتت ولم يأكل منها. والسبع هو

كل ذي ناب وأظفار من الحيوان كالأسد والنمر والذئب والضبع ونحوها من الحيوانات المفترسة. وقد كان العرب في الجاهلية يأكلون ما ترك السبع من الشاة أو البقرة أو نحو ذلك، فحرم الله ذلك على المؤمنين، والحكمة من ذلك أن الحيوانات المفترسة تأكل الجيف عادة التي تحمل الأمراض، وربما انتقلت الجراثيم من فم السبع إلى الفريسة **﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُم﴾** والتذكية في كلام العرب: الذبح والمعنى: إلا ما أدركتم فيها الحياة وقمتم بذبحها مما قد ذُكر من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ما خلا لحم الخنزير. ومظاهر الحياة فيها إذا كانت تطرف بعينها أو تحرك ذنبها أو تركض برجلها، فتذبح ذبحاً شرعياً وعندها يحل أكلها.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ والنصب حجارة كانت العرب في الجاهلية يعظمونها ويذبحون عليها تقرباً للأصنام، وكانت حول الكعبة وعددها ثلاث مئة وستون فكانوا إذا ذبحوا لطخوا بالدم على ما أقبل من بيت الله الحرام ووضعوا عليها اللحوم قطعاً قطعاً، فنهى الله عن الذبح على النصب، وعن أكل ما ذُبح عليها.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ﴾ أي وحُرّم عليكم أن تطلبوا عِلْم ما قُسِمَ لكم أن تفعلوه بواسطة الأزلام، والأزلام قطع من الخشب على هيئة السهام مكتوب على أحدها أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، والثالث خالٍ من الكتابة. فإذا أراد أحدهم سفراً أو قضاء حاجة ما، أو زواجاً، حرّك هذه الأزلام وسحب إحداها من وعاء وضعت فيه، فإن كان الذي التقط مكتوباً عليه (أمرني ربي) أقدم على ما عزم على فعله، وإن كان الذي التقط مكتوباً عليه (نهاني ربي) امتنع عن فعل ما

أراده، وإن كان الذي التقط خالٍ من الكتابة أعاد السحب. وهذا العمل افتراء على الله لأن الله لم يخبر أحداً من خلقه ما قدره عليه بواسطة هذه الأزلام من خير أو شر **﴿ذَلِكُم فِسْقٌ﴾** أي ذلك الاستقسام بالأزلام وتناول ما سبق من المحرمات هو خروج عن طاعة الله ودينه.

ويشبه الاستقسام بالأزلام معرفة الحظ أو ما يُراد فعله بواسطة المسبحة أو المصحف، أو أوراق اللعب (الشدة) أو قراءة الفنجان أو الكف ـ كما يفعل ذلك بعض الناس ـ فَفِعْلُ كل ذلك حرام ومنكر شرعاً لا يجوز اللجوء إليه.

وقد سنّ رسول الله بديلاً من ذلك كله صلاة الاستخارة وهي ركعتان ثم الدعاء بهذا النص المأثور وانتظار النتيجة من انشراح الصدر أو انقباضه، وهذا هو نص الدعاء:

روى البخاري من حديث جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ من غَيْرِ الفَرِيضَةِ. ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأَسْتَقْدِرُكَ بقُدْرَتِكَ. وَأَسأَلُكَ مِن فَضْلِكَ العَظِيم. فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وتَعْلَمُ ولاَ أَعْلَمُ، وأَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ. اللَّهُمَّ، إِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذا الأَمرَ ـ ويُسَمِّي حاجَتَهُ ـ خَيْرٌ لي فِي دِينِي ومَعَاشي وَعَاقِبَةِ أَمْري ـ أو قَالَ في عاجِلِ أَمْري وآجِلِهِ ـ فَاقْدُرْهُ لِي، ويَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بارِكْ لِي فِيه. وإِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّ هذَا الأَمْرَ ـ ويُسَمِّي حاجَتَهُ ـ شَرٌّ لِي فِي دِينِي ومَعاشِي، وعَاقِبَةِ أَمْري ـ أو قالَ فِي عاجِلِ أَمْري وآجِلِه ـ فاصْرِفْهُ عَنِّي واصْرِفْنِي عَنْهُ، واقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كانَ ثُمَّ رَضِّنِي ـ أو أَرْضِنِي ـ بِه».

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ اليوم: قيل هو الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية، وقيل: يوم نزول الآية وهو يوم الوقوف بعرفة، أو يوم فتح مكة. واليأس: انقطاع الرجاء، فالكفار انقطع رجاؤهم من زوال دين الإسلام، أو النيل منه، أو يئسوا من أن يرتدّ المؤمنون عن دينهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ فلا تخشوا أيها المؤمنون أن يغلبكم هؤلاء الكفار، أو أن يبطلوا دينكم فقد أبدلكم الله من ضعف إلى قوة، ومن خوف إلى أمن، فالواجب عليكم أن تخافوا الله لأنكم إن خالفتم أمره وتعديتم حدوده فقد يحل بكم عقابه وينزل بكم عذابه.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ والمراد باليوم هنا يوم وقف النبي ﷺ على عرفة وقد صادف يوم الجمعة بعد العصر في حجة الوداع، فقد أخبر الله رسوله محمداً والمؤمنين أنه قد أكمل لهم دينهم وأتمه فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، إذ بيّن الله فيه الحلال والحرام، والفرائض والأحكام، وهذه أكبر نعمة أنعمها الله على المسلمين إذ لم يعودوا يحتاجون إلى دين غيره، وليس المراد بإكمال الدين أنه كان ناقصاً قبل اليوم ثم أكمله، وإنما المراد أن الأحكام صارت فيه غير قابلة للنسخ وأصبحت مؤبدة تصلح لكل زمان ومكان ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي أتم الله على المؤمنين نعمة النصر ومكنهم من أعدائهم، فدخلوا مكة ظافرين منتصرين، وأدّوا عبادتهم لله آمنين، وانتشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ واختار الله لهم الإسلام ديناً ورضيه لهم، فهو الدين المقبول عنده الذي لا يقبل غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفي شأن هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي..﴾ قال يهودي لعمر رضي الله عنه: «إنكم تقرأون ـ أيها المسلمون ـ آية لو أنزلت فينا لاتخذناها عيداً» وأيّ نعمة أفضل من نعمة الإسلام الذي أخرج الله فيه الناس من الظلمات إلى النور، وبيّن الله فيه ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم، فعلى المسلمين أن يقدّروا هذه النعمة حق قدرها ويقوموا بواجبها حق القيام، وذلك بالتمسك بدينهم لأن فيه عزهم ودوام سؤددهم.

وبعد أن ذكر القرآن المحرّمات من المآكل استثنى من ذلك حالة الضرورة.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ والاضطرار: الوقوع في الضرورة، والمخمصة: المجاعة، والمعنى: أي ما ذكر من تناول المحرمات السابقة محظور الأكل منها في حالة الاختيار، ولكن إن ألجأتكم الضرورة إلى الأكل منها في وقت المجاعة إنقاذاً لحياتكم بسبب عدم وجود غيرها ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ متجانف: من الجنف وهو الميل، أي فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات حال كونه غير مائل إلى ارتكاب إثم من الآثام بأن يأكل فوق الشبع تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة في ذلك أو ينتزعها من مضطر آخر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإن الله ساتر لذنوب عباده رحيم بهم لذا رخّص الله لهم أكل المحرمات في حالة الضرورة. وعلى ضوء هذا النص القرآني استنبط علماء التشريع قاعدتين في الفقه الإسلامي اعتمدوهما وهما:

أولاً: الضرورات تبيح المحظورات. **ثانياً**: الضرورات تُقدَّرُ بقدرها، أي متى زالت الضرورة عاد الحظر.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم
مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن
يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

شرح المفردات

الجوارح: هي الصائدة من الكلاب والفهود والطيور الكاسرة التي يتكسّب منها.

مُكلّبين: معلمين ومدربين إياها على الصيد.

فكلوا مما أمسكن عليكم: فكلوا من الصيد الذي جاءت به الجوارح ولم تأكل منه.

واذكروا اسم الله عليه: واذكروا اسم الله على نية الصيد عند إطلاق ما دربتموه من الجوارح.

المحصنات: الحرائر[1] العفيفات.

غير مسافحين: السفاح هو الزنا أي غير مجاهرين بالزنا.

ولا متخذي أخدان: أخدان جمع خدن وهو الصديق أي غير متخذي عشيقات تعاشروهن سرًّا.

حبط عمله: بطل ثواب عمله.

(١) الحرائر: جمع حرة خلاف الأمة، والأمة هي العبدة المسترقّة.

أحكام في الصيد والعلاقة مع أهل الكتاب

وبعد أن حرم الله على المؤمنين أصناف اللحوم التي تضر بالصحة العامة، أباح لهم تناول الطيبات من الأطعمة، وما تناله أيديهم عن طريق الصيد، قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يسألك المؤمنون يا محمد ماذا أحل الله لهم من الطعام **﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾** قل يا محمد لهؤلاء السائلين: إن الله أحل لكم الطيبات من المآكل الحلال وهي كل ما يستطيبه الذوق السليم وتشتهيه النفوس عند أهل المروءة والرزانة ولا تستقذره وتعافه الأنفس **﴿وَمَا عَلَّمْتُم من الجَوَارِحِ﴾**[1] أي وأحل الله لكم كذلك صيد ما دربتم من الجوارح على الصيد من سباع البهائم: كالكلاب والفهود وغيرها، ومن الطيور الكاسرة: كالبازي والصقر ونحوهما **﴿مُكَلِّبِينَ﴾** أي معلمين لها الصيد. والمكلّب هو مدرّب الكلاب على الصيد. وخُص معلم الكلاب بالذكر وإن كان يعلّم غيرها من الفهود أو الطيور على الصيد، لأن الصيد بالكلاب هو الغالب عند الناس **﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾** أي تعلّمون الجوارح بما اكتسبتم من علم ودراية بحيث تصبح إذا أُرسلت لطلب الصيد استجابت، وإذا زُجرت ازدجرت، وإذا أمسكت صيداً لم تأكل منه شيئاً، وأن لا تفر منه إذا أراد منها الصيد.

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُم﴾ أي فكلوا من الصيد الذي أمسكته

(١) جوارح: جمع جارحة ومعناها الكاسبة، أي هي الحيوانات أو الطيور التي من شأنها أن تكسب صيداً ومنه قوله تعالى: ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ [الأنعام: ٦٠] أي ما كسبتم.

هذه الجوارح لأجلكم، وبأن لم تأكل منه شيئاً وإن قتلن الطريدة التي أمسكتها. فإذا أدركتموها حيَّة فاذبحوها، أما إذا أكلت منها فلا تأكلوا من هذه الطريدة لأنها أمسكته على نفسها **﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾** أمر الله بالتسمية عند إرسال الجارحة إلى الصيد. ومذهب الإمام مالك وجمهور أهل العلم أن التسمية واجبة مع الذكر ساقطة مع النسيان فمن تركها عامداً فقد أفسد الذبيحة والصيد ومن تركها ناسياً سمى عند الأكل وكانت الذبيحة جائزة، ولفظ التسمية: بسم الله والله أكبر.

وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ حيث قال لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك وسميت فَأَمْسَكَ وقَتَلَ فكُل، وإن أَكَلَ فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه. وإذا خالط كلاباً لم يُذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن فلا تأكل فإنك لا تدري أيها قتل. وإن رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكُل. وإن وقع في الماء فلا تأكل»[١].

وكذلك إذا ما اصطاد الإنسان بالبندقية فإن ذكر اسم الله أولاً وقبل أن يطلق الرصاصة فليأكل من الصيد وإن وصل إليه ميتاً، أما إن وصل إليه حياً فليذبحه **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** أي احذروا مخالفة أمره فيما أرشدكم إليه واتخِذوا وقاية من عذابه بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه **﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** أي يحاسبكم على ما تعملون من غير توانٍ ولا إمهال.

---

(١) أخرجه الشيخان.

ويتابع القرآن فيذكر بأن الله أحل للمؤمنين طعام أهل الكتاب والزواج من نسائهم:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ تكرار لما سبق المراد منه أن على المؤمنين أن يتحروا الطيبات لمأكلهم التي تستطيبها النفوس السليمة التي أحلها الله لهم **﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾** أي وأحل الله لكم ـ أيها المؤمنون ـ طعام أهل الكتاب وذبائحهم مما لم يرد نص بتحريمه **﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾** وطعامكم أيها المؤمنون حلال لأهل الكتاب.

فالإسلام يريد أن يغرس الأُلفة والترابط والتسامح بين المسلمين وأهل الكتاب عن طريق إباحة الأكل لنا من ذبائحهم، وإباحة الأكل لهم من ذبائحنا كما يريد أن ييسر التعايش بينهما عن طريق المصاهرة التي سيأتي الكلام عنها.

وقد اتفق جمهور الفقهاء على أن ذبائح أهل الكتاب من الأنعام وغيرها مما يباح أكله هي حلال إذا ذبحت وسال دمها، أما غيرها من الأطعمة فحلال أكلها باستثناء الأطعمة التي دخلها أجزاء من الخمر أو الميتة أو الخنزير كالزيوت والأجبان وغيرها فيحرم أكلها.

ولكن هناك سؤال وهو أن أهل الكتاب قد يذكرون اسم غير الله أحياناً على ذبحائهم فهل يحل الأكل منها؟ قال جمهور من الصحابة إذا سمعت الكتابي (أي اليهودي أو النصراني) يُسَمِّي غير اسم الله عزّ وجلّ فلا تأكل، وقال الإمام مالك: أكره ذلك ولا أحرمه.

وقال الحسن: إذا ذبح اليهودي والنصراني فذكر اسم غير الله وأنت

تسمع فلا تأكل وإذا غاب عنك فكل فقد أحل الله ذلك.

وعن عمير بن الأسود أنه سأل أبا الدرداء عن كبش ذُبح لكنيسة يقال لها جرجس أهدوه لها أنأكل منه؟ فقال أبو الدرداء: اللّهم عفواً إنما هم أهل كتاب طعامهم حل لنا وطعامنا حل لهم وأمره بأكله.

ويُتابع القرآن فيذكر ما أحل الله للمؤمنين من الزواج من النساء:

﴿والمُحْصَنَاتُ[1] مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي وأحل لكم ـ أيها المؤمنون ـ الزواج من الحرائر العفائف من المؤمنات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وكذلك أحل الله لكم الزواج من النسوة العفيفات من أهل الكتاب اللاتي كن قبلكم في الملة وأهل الكتاب: هم اليهود والنصارى، وهذا من سماحة الإسلام في معاملة أهل الكتاب، وقد أباح أكثر الفقهاء والمفسرين عند أهل السنة الزواج من الكتابيات وكرهه ابن عمر ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ إذا أعطيتموهن مهورهن وسمي المهر أجراً لتأكيد وجوبه، وعدم الاستهانة بأي حق من حقوق المرأة وقد فرض المهر إعزازاً لها وتكريماً.

أما النساء المؤمنات فلا يحل للرجال من أهل الكتاب الزواج

(١) المحصنات: تأتي بمعنى الحرائر، والحرائر: جمع حرة وهي التي في مقابل الأمة (أي العبدة) لأن الإحصان يعني الوقاية من الفاحشة، وكانت الحرة قديماً تتورع عن فعل القبيح وكان البغاء مقصوراً على الإماء. وتأتي المحصنات بمعنى العفيفات وهي المقصودة هنا ويكون وصف القرآن لهن بذلك من باب الترغيب في اختيار الزوجة التي تتصف بالعفة والحرص على اختيارها على من عداها من النساء. كما يطلق لفظ الإحصان على الرجل المتزوج أو المرأة المتزوجة.

منهن، فقد رُوي عن عمر بن الخطاب قوله: نساء أهل الكتاب لنا حلٌ ونساؤنا عليهم حرام.

وروي أيضاً عن جابر قوله: نساء أهل الكتاب لنا حلٌ ونساؤنا عليهم حرام. لأن الزوجة المسلمة إذا تزوجت بغير المسلم فهي تنتقل إلى أسرة الزوج وقومه بحكم الواقع كما أن أولادهما يلتحقون بدين زوجها، وتصبح ملزمة بتربية أبنائها على دين غير دينها، وهذا يتنافى مع عقيدتها، لأن الإسلام يجب أن يهيمن أبداً.

وكما اشترط القرآن العفة في النساء فإنه اشترطها أيضاً في الرجال، قال تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ والإحصان في هذا الموضع هو النكاح ـ أي الزواج ـ، والسفاح: هو الزنى، أي طالبين أيها الرجال العفة في النكاح غير زانين ﴿وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾[1] أي ولا متخذين عشيقات وخليلات تزنون بهن في السر ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ﴾ أي ومن يجحد وحدانية الله وشرائع الإسلام وعقائده ونبوة محمد ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ فقد بطل ثواب عمله الذي كان قد عمله في الدنيا ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهو يوم القيامة من الذين خسروا نعيم الجنة.

(١) أخدان: جمع خِدن وهو الصديق يطلق على الذكر والأنثى، والمراد بالخدن هنا البغي التي يصادقها الرجل ليفجر بها وحده سرًّا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

شرح المفردات

الغائط: موضع قضاء الحاجة.

لامستم النساء: كناية عن الاتصال الجنسي، وقيل مس البَشَرَة.

صعيداً طيباً: تراباً أو وجه الأرض طاهراً.

حرج: ضيق في دينه وتشريعه.

أحكام الوضوء والغسل

وبعد أن بيّن القرآن ما أباح الله للمؤمنين من المآكل والزواج من العفيفات من المؤمنات ومن نساء أهل الكتاب انتقل إلى الكلام عن الوضوء الذي يشترط لصحة الصلاة قال الله تعالى:

﴿يا أيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِذَا قُمْتُم إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم وَأَيْدِيَكُم إِلى المَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرؤوسِكُم وَأرجُلَكُم إِلى الكَعْبَيْنِ..﴾.

أمر الله المؤمنين بأنهم إذا أرادوا القيام إلى الصلاة وهم محدثون حدثاً أصغر[١] فعليهم القيام بأعمال الوضوء التي نصت الآية على أربعة منها وهي:

أولاً: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم﴾ وغسل الوجه حدّه طولاً من منبت شعر الرأس إلى أسفل الذقن. وحدّه عرضاً ما بين شحمتي الأذنين.

ثانياً: ﴿وَأَيْدِيَكُم إِلى المَرَافِقِ﴾ والمرافق: جمع مرفق وهو عظْمُ المفصل البارز في نهاية الذراع، والمعنى: واغسلوا أيديكم مع المرافق، لأن (إلى) الداخلة على المرافق فسرها الكثير من الفقهاء بمعنى: مع. ولأن النبي ﷺ لازم في وضوئه غسل المرفقين مع اليدين.

ثالثاً: ﴿وامْسَحُوا بِرُؤوسِكُم﴾ والمسح إمرار اليد المبللة بالماء على الرأس، والفقهاء لهم اجتهادات في مسح الرأس: فالشافعي قال إن المطلوب مسح بعض الرأس. وأبو حنيفة قال: بمسح ربع الرأس. ومالك قال بمسح جميع الرأس.

رابعاً: ﴿وَأَرْجُلَكُم إِلَى الكَعْبَيْنِ﴾ وقد اختلف القراء في قراءة وأرجلكم فقرأ جماعة من قراء الحجاز والعراق (وأرجلَكُم) بفتح اللام، وقرأ آخرون (وأرجلِكُم) بالجر، وبموجب هذا اختلف الحكم في الأرجل: المسح أو الغسل؟ أما قراءة الفتح فبناء على أن أرجلكم

(١) الحدث الأصغر يحدث بالبول والغائط والنوم الذي لا يبقى معه إدراك وهناك أمور أخرى تنقض الوضوء يُرجع إليها في كتب الفقه. وإذا أحدث المتوضىء بطل وضوؤه ولا تصح صلاته وعليه إعادة الوضوء.

معطوفة على الأيدي أي اغسلوا وجوهكم واغسلوا أرجلكم أي أن الفرض هو غسل الرجلين وهذا ما ذهب إليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وأصحابهم، وقد ورد البيان عن النبي ﷺ بالغسل قولاً وفعلاً فهو ما ثبت بالنقل المستفيض المتواتر أن النبي ﷺ غسل رجليه في الوضوء، فقد توضأ وغسل كل عضو مرة واحدة فغسل رجليه وقال هذا وضوء من لا يقبل الله له صلاة إلاّ به، كما روي عن جمهور من الصحابة أن النبي ﷺ رأى قوماً تلوح أعقابهم لم يصبها الماء فقال ويل للأعقاب[1] من النار، وهذا وعيد لا يستحق إلا لمن ترك الفرض. فأفاد ذلك كله وجوب غسل الرجلين ولا يجزىء مسحهما لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب ويخطىء ما أخطأ.

هذا وإن غسل الرجلين يشتمل على المسح ولا ينعكس فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط فوجب المصير إليه، وعلى هذا الوجه يجب القطع بأن غسل الرجلين يقوم مقام مسحهما. وكذلك إن فرض غسل الرجلين محدود إلى الكعبين والتحديد إنما جاء في الغسل لا في المسح، والكعبان هما العظمان الناتئان من جانبي الساق.

وأما قراءة ﴿وأرجلِكم﴾ بالجر أي بكسر اللام فقد فسروها بأنها معطوفة على الرأس، وبما أن الواجب في الرأس المسح فكذلك الواجب في الرجلين المسح دون غسلهما، وإلى هذا ذهب بعض الصحابة فقد نقل عن أنس رضي الله عنه قوله: نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل، وكان إذا مسح قدميه بلّهما.

---

(١) الأعقاب: جمع عقب وهو عظم مؤخر القدم.

وعن عكرمة قال: ليس على الرجلين غسل إنما نزل فيهما المسح.

وعن ابن عباس كما رواه عنه عكرمة: الوضوء غسلتان ومسحتان.

وعن الشعبي أنه قال: إنما هو المسح على الرجلين ألا ترى أنه ما كان عليه الغسل (أي في الوضوء) جعل عليه المسح (أي في التيمم) وما كان عليه المسح أهمل.

وقال الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري: المكلف مخير بين المسح والغسل.

وقال الطبري: إن الله أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء.. وإذا فعل ذلك بهما المتوضىء كان مستحقاً اسم «ماسح غاسل» لأن غسلهما إمرار الماء عليهما أو إصابتهما بالماء، ومسحهما إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما. ولذلك كره أكثر العلماء أن يدخل المتوضىء رجليه في الماء دون أن يمر بيديه عليهما. ويرى الطبري أن الحديث الشريف الذي قال بالويل لمن ترك غسل عقبه في الوضوء «ويل للأعقاب من النار» دليل على وجوب عموم مسح جميع القدم بالماء. ويقول: إن مراد الله من مسحهما العموم وكان لعمومهما بذلك معنى الغسل والمسح.. لأن في عموم الرجلين بمسحهما بالماء غسلهما، وفي إمرار اليد وما قام مقام اليد عليهما مسحهما.

بعض الأحكام حول الوضوء

ذهب جمهور الفقهاء أن النية ركن من أركان الوضوء. والنية معناها القصد إلى الصلاة بواسطة الوضوء طلباً لرضى الله، لأن الوضوء عبادة

فيفتقر إلى النية كسائر العبادات لقول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات».

ويفيد ظاهر نص القرآن **﴿إذا قُمْتُم إلى الصَّلاةِ﴾** أن الوضوء واجب عند القيام لكل صلاة، ولكن الثابت في السنة النبوية أن النبي ﷺ صلّى الصلوات الخمس بوضوء واحد وهو على طهارة.

وقال جمهور الفقهاء إن ترتيب أفعال الوضوء كما جاءت في القرآن شرط لصحة الوضوء.

وذهب بعض الفقهاء إلى وجوب الموالاة بين أفعال الوضوء، فإذا قطع المتوضىء وضوءه بعمل خارجي وجب استئنافه مبتدئاً بأوله.

ولنعد إلى بقية الآية حيث يقول الله تعالى: **﴿وإن كنتم جُنُباً فاطَّهّروا﴾** كلمة (جُنُب) وصف للرجل والمرأة وتطلق على الجمع والمفرد. ولحصول الجنابة سببان: نزول منيّ الرجل بتدفق ولذة سواء في اليقظة أو المنام، والثاني التقاء الختانين، أي ختان الرجل وهو عضوه الذكري، وختان المرأة وهو فرجها. أي الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة.

والجنابة بمعناها الشرعي تستلزم اجتناب الصلاة، وقراءة القرآن، ومس المصحف، ودخول المسجد إلى أن يغتسل الجنب، وكما يجب الغسل للجنابة يجب عند انقطاع الحيض والنفاس عند المرأة.

والتطهر من الجنابة يكون بالاغتسال بصب الماء على كل جزء من أجزاء الجسم وإيصال الماء إلى منابت الشعر عند الرجال، أما بالنسبة إلى النساء فإذا كان لهن ضفائر فلا تحلها دفعاً للحرج.

﴿وَإِنْ كُنْتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ فإذا كان هناك من مرض يمنع

من استعمال الماء للوضوء، أو الطهارة من الجنابة بالغسل، أو كنتم في سفر وتعذر وجود الماء، أو إذا وُجِدَ فلحاجة ملحّة كالشرب **﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِنَ الغَائِطِ﴾** والغائط هو اسم للمنخفض من الأرض، وكانوا يقضون الحاجة هناك فجعل ذلك كناية عن الحدث. هكذا كان في الماضي، أما الآن فقضاء الحاجة يكون في أماكن معينة في البنايات، وقضاء الحاجة ينقض الوضوء. وتأمل لفظ **﴿أَحَدٌ مِنْكُم﴾** بصيغة المفرد للإشارة إلى وجوب الذهاب إلى قضاء الحاجة فرادى للاستتار **﴿أوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾** اختلف الصحابة في معنى الملامسة المذكورة في هذه الآية فقال بعضهم هي كناية عن الجماع وعدم ذكر ما يستحيي من ذكره وكانوا لا يوجبون الوضوء لمن مس امرأته، وقال غيرهم إن الملامسة هنا المراد منها اللمس باليد، وكانوا يوجبون الوضوء بمس المرأة.

واختلف الفقهاء في ذلك فقال أبو حنيفة وصاحباه[1] لا وضوء على من مسّ امرأة لشهوة أو غير شهوة، وقال مالك: إن مسّها لشهوة تلذذاً فعليه الوضوء وكذلك إن مسّته تلذذاً فعليها الوضوء. وقال الشافعي: إذا مسّ يدها أو جسدها فعليه الوضوء لشهوة أو لغير شهوة **﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾** والتيمم: هو القصد، والصعيد: هو وجه الأرض تراباً أو غيره، والطيّب: هو الطاهر الذي لم تلوثه النجاسة والأقذار. والمعنى: إذا أعوزكم الماء وتريدون الطهارة فاقصدوا وجه الأرض الطاهر النظيف غير النجس **﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِنْهُ﴾**

---

(١) صاحباه: هما أبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني.

والتيمم هو مسح الوجه واليدين بالتراب بضربتين ضربة على التراب يمسح بها وجهه، وضربة ثانية على التراب يمسح بها يديه إلى مرفقيه.
ولا يصلي المتيمم إلا صلاة فرض واحدة ويتيمم بعد دخول وقت الصلاة **﴿مَا يريدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ﴾** أي ما يريد الله أن يجعل عليكم بما فرضه من الوضوء والغسل والتيمم لصحة الصلاة من ضيق ومشقة في ذلك **﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾** أي يطهر أعضاءكم المعرضة للأوساخ والغبار بالماء عدة مرات في اليوم عن طريق الوضوء، كما يريد أن يطهركم من الذنوب حيث جُعل الوضوء رمزاً للطهارة المعنوية، يقول النبي ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء[1]، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب»[2] فغسل الإنسان هذه الأعضاء يوحي له أن عليه أن يغسل معها آثامها ويجعل في نفسه إحساساً ووازعاً للابتعاد عن الشر.

ثم يختم الله الآية بقوله **﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَّكُم تَشْكُرونَ﴾** أي ويريد الله أن يتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام التي فيها الخير لكم ولتشكروه على نعمه التي لا تحصى.

---

(١) شكٌ من راوي الحديث بأن النبي ﷺ قال (مع الماء) أو (مع آخر قطر الماء).
(٢) أخرج هذا الحديث مالك ومسلم عن أبي هريرة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١٠ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾

شرح المفردات

وميثاقه الذي واثقكم به: عهده الذي أخذه عليكم.
قوّامين: أي قائمين حق القيام.
بالقسط: بالعدل.
لا يَجْرِمَنّكم: لا يحملنكم.
شنآن: بغض وعداوة.
ألاّ تعدلوا: أن لا تعدلوا.
يبسطوا إليكم أيديهم: يبطشوا بكم.
فكف أيديهم عنكم: فمنعهم عن إيذائكم وإلحاق الضرر بكم.

التذكير بنعم الله والدعوة إلى القيام بالعدل

بعد أن أشار الله إلى ما فيه غذاء للأرواح وطهارة للأبدان عن طريق الصلاة والوضوء، بيّن الله نعمه على المؤمنين بقوله:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ نعمة الله عليكم بهدايتكم للإسلام حيث كنتم متفرقين فجمعكم على الحق، وكنتم أذلاء فأعزكم بالإسلام، وكنتم فقراء فأغناكم، وكنتم مستضعفين في الأرض فمكّن لكم فيها، وهذه النعم تستوجب منكم الشكر لخالقكم ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ والميثاق: العهد، أي واذكروا عهد الله الذي أخذه عليكم وعاهدكم به حين بايعتم ـ أي عاهدتم ـ رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة سواء فيما ترغبون أو تكرهون ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ حين قلتم لرسول الله: سمعنا ما قلت لنا وأطعناك فيما أمرتنا به، فقوموا ـ أيها المؤمنون ـ بما عاهدتم عليه رسول الله.

والمسلمون عاهدوا رسول الله عدة عهود، منها مبايعة الأنصار له في مكان يدعى العقبة حيث عاهدوه بأنهم سيدافعون عنه كما يدافعون عن نسائهم وأبنائهم وأنهم سيؤوونه إذا هاجر إليهم، ومن هذه العهود بيعة الرضوان في الحديبية تحت الشجرة.

والملفت للنظر أن الله أضاف الميثاق الذي حصل بين رسوله محمد وبين المؤمنين إلى ذاته العلية حيث قال سبحانه: ﴿وَمِيثَاقَهُ الذي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ وقد تكرر هذا المعنى في القرآن حيث خاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فالمؤمنون حين يوفون بما عاهدوا رسول الله عليه فهم بذلك يوفون بعهد الله، وإذا صدقوا فيما عاهدوا الله عليه فهناك وعد من الله بأن يوليهم نعمه ويهبهم النصر من عنده، وفي هذا يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ثم ختم الله الآية التي نحن بصددها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وتقوى الله هي أن يستشعر المؤمنون عظمته ويتخذوا من ذلك وقاية لأنفسهم من معصيته فهو سبحانه عليم بالنوايا التي تستتر داخل الصدور والقلوب، وتخصيص العلم بها للتحذير من مخالفة الله في السرّ وبالأحرى في العلن، ووجوب تطهير القلوب من الدنس والشرور.

وبعد أن بيّن الله للمؤمنين واجب الطاعة لرسوله بما عاهدوه عليه أردف ذلك بوصيته لهم بالعدل في أي موقع كان:

﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ[1] لِلَّهِ﴾ خاطب الله المؤمنين بأن يكونوا قائمين حق القيام لله في كل عمل يعملونه من أمر دينهم ودنياهم، قاصدين بأعمالهم وجه الله في كل ما يلزمهم القيام به من الأمر بالمعروف والعمل به والنهي عن المنكر واجتنابه تعظيماً لأمره وطمعاً في ثوابه ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي أدوا الشهادة بالعدل على وجهها الصحيح من غير مراعاة لقرابة، أو صداقة، أو مجاملة، أو خوفاً من أحد ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ أي ولا يحملنكم بغضكم لقوم على أن لا تعدلوا في حكمكم فيهم أو أن لا

(١) قوامين: جمع قوّام وهو صيغة مبالغة من قائم، والقوّام هو المبالغ في القيام بالشيء على أتم وجه وأحسنه.

تشهدوا عليهم بالحق، لأن المؤمن يجب أن يكون دائماً بجانب الحق. وهذا توجيه رباني فرضه الله على المسلمين لا نرى له مثيلاً في كل الأنظمة المعمول بها في الأرض حيث يوصي أتباعه بالعدالة المطلقة حتى مع أعدائهم، متجردين من كل اعتبار يمنعهم من ذلك، ومترفعين عن الحقد والانتقام، حتى ولو كانوا لاقوا على أيديهم من قبل صنوف الأذى **﴿اْعدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾** أي أن العدل هو أقرب الطرق الموصلة إلى تقوى الله وخشيته واتقاء عذابه. وإذا كان العدل مطلوباً مع الكفار الذين هم أعداء الله، فبالأحرى أن يكون مطلوباً مع المؤمنين الذين هم أولياء الله وأحباؤه **﴿واتَّقُوا اللَّهَ﴾** وتجنبوا عذاب الله وسخطه بالعمل بما أمر والانتهاء عما نهى **﴿إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** إن الله عليم بدقائق أموركم لا تخفى عليه خافية من أعمالكم وسيجازيكم عليها يوم القيامة من ثواب أو عقاب حسب أعمالكم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وعد الله عباده المؤمنين الذين صدّقوا بوحدانيته وبرسوله محمد وعملوا صالح الأعمال التي أمر الله بها، المشتملة على الخير ونفع العباد **﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** ومغفرة الله لهم هي سترٌ لذنوبهم والعفو عنها، والأجر العظيم هو ما وعدهم به من النعيم الدائم في الآخرة. والجدير بالذكر أنه ما من موضع في القرآن ذُكِرَ فيه الإيمان والثناء على المؤمنين إلا اقترن بالعمل الصالح، لأن الإيمان الحقيقي ثمرته العمل الصالح.

﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والذين جحدوا وحدانية الله ونقضوا العهد الذي عاهدوا الله عليه، وكذبوا بآيات الله المنزلة على رسله **﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾** أي هؤلاء سيُصلون ناراً شديدة التأجج

ليعذبوا بها أشد العذاب وهم يلازمونها ملازمة الصاحب لصاحبه الذي لا يفترق عنه.

﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اْذْكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ هنا يذكّر الله المؤمنين بنعمة خاصة هي إنجاؤهم من كيد أعدائهم ليشكروه عليها فيداوموا على طاعته والامتثال لأمره **﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُم أَيْدِيَهُمْ﴾** حين عزم أعداؤكم من المشركين أو اليهود أن يبطشوا بكم، يقال: بسط إليه يده إذا بطش به **﴿فَكَفَّ أَيدِيَهُم عَنْكُم﴾** فمنعهم الله من إيذائكم بقهره لهم وسلطانه فلم يستطيعوا أن ينالوا منكم شيئاً **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** واحذروا الله أيها المؤمنون أن تخالفوه فيما أمركم به ونهاكم عنه **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾** وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ويفوضوا أمرهم إليه.

هذه الآية التي يمنُّ الله بها على المؤمنين بنعمته عليهم، قيل إنها نزلت حين أنقذ الله نبيه محمداً من يهود بني النضير حين همّوا بقتله وقتل من معه يوم سار إليهم يطلب منهم الإعانة على دفع دية رجلين قُتلا ظلماً كان معهما أمان من النبي ﷺ. وكان النبي ﷺ قد عقد مع بني النضير عهداً أن لا يحاربوه وأن يعينوه على الدّيات التي يتوجب دفعها، فلما حضر عندهم وجدوا أن الفرصة قد سنحت لهم للغدر به، وهموا أن يسقطوا عليه صخرة، فأعلم الله نبيه بذلك فانطلق ونجا منهم.

وهناك روايات أخرى في هذا الصدد حاول أفراد اغتيال النبي ﷺ فلم يمكّنهم الله من غدرهم. كما أن من نعم الله على المؤمنين نجاتهم من الإبادة يوم معركة الأحزاب وغيرها من المعارك، فلا تخصيص في النص القرآني بل يترك على عمومه ليعم كل مؤامرة.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)﴾

شرح المفردات

وبعثنا: أرسلنا.

نقيباً: رئيساً وعريفاً.

وعزّرتموهم: نصرتموهم مع تعظيمهم وطاعتهم.

أقرضتم الله قرضاً حسناً: أنفقتم في سبيل الله عن طيب نفس.

سواء السبيل: الطريق الواضح الموصل إلى سعادتكم.

فبما نقضهم ميثاقهم: أي فبسبب نقضهم عهدهم المؤكد.

لعناهم: طردناهم من رحمتنا.

قلوبهم قاسية: قلوبهم صلبة لا تعرف الرحمة ولا تؤثر فيها الموعظة.

يحرّفون الكلم عن مواضعه: يغيرون كلام التوراة أو يؤولونها بالباطل.

ونسوا حظًّا مما أمروا به: نسوا نصيباً مما أمروا به في التوراة من اتباع رسول الله محمد ﷺ.

خائنة: خيانة.

نقض بني إسرائيل لعهد الله وتحريفهم للتوراة

وبعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بالوفاء بعهده الذي أخذه عليهم على لسان رسوله محمد ﷺ بالسمع والطاعة له، شرع الله يبين كيف أخذ العهود والمواثيق على اليهود قبلهم فنقضوا عهد الله، محذراً بذلك المؤمنين من السير على خطاهم:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ﴾ أي ولقد أخذ الله الميثاق - وهو العهد - على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة، والميثاق الذي أخذه الله عليهم هو ما كلفهم به من صلاة وزكاة وطاعة لرسله والجهاد في سبيله **﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾** وأمر الله موسى أن يختار من بني إسرائيل اثني عشر رئيساً يتولون أمور أسباط[1] بني إسرائيل وكان عددهم اثني عشر سبطاً فيختار عن كل سبط رئيساً، ويقوم هؤلاء الرؤساء أو النقباء على رعاية قومهم. ثم أمر الله موسى بالسير ومن معه من بني إسرائيل إلى بيت المقدس التي كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وذلك للاستيلاء عليها، فلما دنا موسى من الأرض المقدسة أرسل هؤلاء النقباء إليها ليستطلعوا أحوال سكانها ويتحسسوا أخبارهم ليقاتلوهم **﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنّي مَعَكُمْ﴾** وقال الله لهؤلاء النقباء أو لبني إسرائيل جميعاً: إني معكم بالنصر والتأييد على أعدائكم أو أنه معهم بعلمه يعلم حالهم من طاعة وعصيان **﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾** لئن: اللام هي الموطئة للقسم أي والله لئن أديتم الصلاة على وجهها الكامل بإخلاص ودون رياء، وأعطيتم الزكاة للمستحقين لها من

(١) الأسباط: جمع سبط، والسِّبْط من اليهود كالقبيلة من العرب.

فقرائكم ﴿وآمنتم برسلي﴾ وصدّقتم برسلي الذين أرسلتهم إليكم ﴿وعزّرتموهم﴾ والتعزير: هو النصرة لهم مع التوقير والتعظيم ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ والمراد من إقراض الله في هذا المقام هو الإنفاق في سبيل الله وإعطاء الضعفاء والمساكين حقهم من مال الله، فمن يفعل ذلك بإخلاص ابتغاء مرضاة الله فكأنما أقرض الله قرضاً حسناً. وليس المقصود أن الله بحاجة إلى من يقرضه فقد جاء في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ٥١] وإنما سمى الله سبحانه الإنفاق هنا إقراضاً له للحث عليه والترغيب به وتشريفاً لعمل المنفق.

ثم يبيّن الله ثمرة ذلك كله: ﴿لأكفّرنّ عنكم سيّئاتكم﴾ هذا جواب القسم الذي أقسم الله به سبحانه وهو يتضمن ما وعد الله به بني إسرائيل إذا قاموا بما يوجبه الميثاق عليهم، وهذا الوعد هو غفران ما ارتكبوا من سيئات، وقد عبّر الله عنها بلفظ ﴿لأكفرنّ﴾ ومعنى تكفيرها سترها فلا تفضح بالعذاب إذ العذاب كشف لها ﴿ولأدخلنّكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾ أي ومع المغفرة يدخلهم الله في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ينعّمون فيها بما أعد الله لهم من صنوف النعيم جزاء وفائهم بميثاق الله ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواءَ السّبيلِ﴾ أي من جحد منكم - يا معشر بني إسرائيل - شيئاً مما أمرته به فتركه، أو عمل بما نهيته عنه، بعد أن أخذت عليكم الميثاق بالوفاء بطاعتي واجتناب معصيتي فقد حاد عن الطريق المستقيم الذي رسمته لكم.

ولكن بني إسرائيل لم يوفوا بعهد الله وحادوا عن طريق الحق:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم﴾ أي بسبب نقضهم عهدهم المؤكد الذي عاهدوا الله عليه استحقوا لعنة الله والبعد عن رحمته ﴿وجعلنا قلوبهم قاسيةً﴾ أي خذلهم الله وأورث قلوبهم الغلظة والقسوة، منزوعة منها الرأفة والرحمة لا تتأثر بالمواعظ[1] ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ أي يغيرون كلام الله في التوراة بالزيادة والنقصان ويتأولونه على غير تأويله، ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله على نبيهم موسى عليه السلام ثم يقولون للناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على موسى. يقول الشيخ رشيد رضا: «إن التحقيق الذي عليه العلماء الذين عرفوا تاريخ القوم (أي اليهود) واطلعوا على كتبهم التي يسمونها التوراة وغيرها، هو أن التحريف اللفظي والمعنوي كليهما واقع في تلك الكتب... وإنها غير متواترة، فالتوراة التي كتبها موسى عليه السلام وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها قد فقدت قطعاً باتفاق مؤرخي اليهود والنصارى»[2].

«ومعظم العلماء المحققين يرون أن التوراة الحالية قد كتبها أحبار اليهود خلال فترة السبي البابلي ما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد أي بعد حوالي سبعة قرون من عصر موسى عليه السلام، وهذه الكتابة تمت اعتماداً على الذاكرة وعلى بعض الوثائق التي ظلت قائمة. وبما أن التوراة قد كتبت في جو مشحون بالشعور بالمرارة والكراهية

(١) وصفاتهم هذه تنطبق على صفاتهم في العصر الحاضر، حيث يرتكبون المجازر في حق الشعب العربي الفلسطيني بدون رأفة ولا رحمة، ويهدمون بيوتهم ويحرقون مزارعهم ويضطهدونهم أشد الاضطهاد.

(٢) تفسير المنار.

والحقد فقد جاءت حافلة بالنصوص التي تمجد بني إسرائيل وتحقر سائر الشعوب الأخرى وتدعو إلى إبادتها»[(١)].

ويقول كاتب الموسوعة البريطانية: «فيما يتعلق ببعض كتابات العهد القديم.. فإن تناقلها ظل شفهياً لمدة طويلة قبل إخضاعها للكتابة. وخلال هذا الفاصل الزمني فإن هذه المواد ربما عانت من الاختصار أو التضخيم أو التحريف على أيدي النقلة، وبذلك فإن النسخة الأصلية لم تتغير فحسب بل إن عملية النقل المتعاقبة قد ولدت أكثر من تنقيح واحد منذ بداية كتابتها»[(٢)].

هذا وإن التوراة التي بين أيدينا تصور الإله بأبشع الصور وتصفه بما لا يليق بالإله الحكيم العادل، أما الرسل الذين أرسلهم الله لهداية البشر فقد نسبت إليهم الموبقات والفواحش والمنكرات وكل ذلك دلائل على تحريف التوراة.

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ والمراد بالنسيان هنا الترك والإهمال، والحظ: النصيب، أي تركوا نصيباً مما أُمروا به في التوراة من وجوب اتباعهم لها وخاصة إيمانهم بمحمد ﷺ عند ظهوره وذلك بما تشتمل عليه كتبهم من البشارات التي تنطبق عليه **﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾** أي ولا تزال يا محمد تشاهد خيانة منهم، فالغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم **﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾** استثنى القرآن قليلاً منهم جبلوا على الوفاء بالعهد، وقد يراد بهذه القلة الذين آمنوا

---

(١) نقلاً عن كتاب: حول موثوقية الأناجيل والتوراة للأستاذ محمد السعدي.

(٢) الموسوعة البريطانية ـ المجلد الثاني صفحة ٨٨٤ نقلاً عن المصدر السابق.

بِنَبِيِّ الإسلام كعبد الله بن سلام وأصحابه.

ولقد وصف الله أكثر اليهود بالغدر والخيانة والقسوة، ووصفهم النبي أرمياء بالكذب والسرقة والزنى والشرك، كما وصفهم السيد المسيح: بأنهم الحيّات أولاد الأفاعي، وأنهم قتلوا الأنبياء والحكماء، وجعلوا بيت الله مغارة للصوص.

ثم نعود إلى تتمة الآية وفيها وصية الله لرسوله محمد ﷺ تجاه ما يلقاه من غدر اليهود وخيانتهم **﴿فَاعْفُ عَنْهُم وَاصْفَحْ﴾** أي فاعف عنهم يا محمد بما ظهر من هؤلاء اليهود، واصفح عمن أساء منهم إليك تأليفاً لهم، فلعلّ الله أن يهديهم. والعفو المراد به عدم مقابلة الإساءة بمثلها، والصفح هو ترك اللوم والمعاتبة **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** فالله يحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه.

فتأمل نبل الإسلام في معاملة اليهود مع أنهم لا يتوانون في الكيد للمؤمنين والإساءة لهم.



﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾

شرح المفردات

أخذنا ميثاقهم: أي أخذ الله العهد على النصارى.

حظاً: نصيباً أو مقداراً.

فأغرينا بينهم العداوة: فألقينا وأوقعنا بينهم العداوة.

يعفوا: يتركه ولا يبينه.

نور: المراد به محمد ﷺ.

كتاب مبين: قرآن مظهر وموضح.

سبل السلام: طرق النجاة والسلامة.

اختلاف النصارى وتركهم نصيباً من كتاب الله

وبعد أن بيّن القرآن أنه أخذ العهد على بني إسرائيل باتباع التوراة، وما كان من أمرهم بعد أن نقضوا العهد، أعقب ذلك ببيان حال النصارى حين أخذ عليهم العهد باتباع عيسى عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أي وأخذ الله من النصارى العهد على طاعته وأداء فرائضه واتّباع ما جاء في الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام. وعبّر القرآن بقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ بدلاً من قوله «ومن النصارى» تنبيهاً على أنهم نصارى بتسميتهم أنفسهم بهذا الاسم ادّعاء لنصرة الله وأنهم على دين المسيح عليه السلام.

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ والمراد بالنسيان هنا: الترك والإهمال عن قصد، لأن الناسي حقيقة لا يؤاخذه الله على نسيانه، ومن أسباب ترك النصارى نصيباً وافراً مما أُمروا به في الإنجيل هو أنهم اضطُهدوا اضطهاداً شديداً في عهد الرومان حتى ضاعت كتبهم ولم يعرف شيء منها إلا القليل بعد أن ترك المسيح هذه الدنيا.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فأغرينا: أي أوقعنا وألقينا، وقيل: ألصقنا بهم مأخوذ من الغراء الذي يلصق به. والفاء الداخلة على أغرينا للسببية، أي فكان تركهم نصيباً من الإنجيل سبباً لوقوعهم في الأهواء والتفرق والتباغض، وتسلّط بعضهم على بعض وتفرقهم إلى فرق شتى كل فرقة تعادي الأخرى، وقد حدث هذا عبر الأجيال إلى يومنا هذا، وبالرجوع إلى تاريخ الكنيسة تظهر هذه الحقيقة القرآنية الجليلة فالقوم لما اختلفوا في كتاب الله وحقيقة عيسى

وعصوا الله ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي سيخبرهم الله يوم القيامة بما كانوا يصنعون في الدنيا من نقضهم ميثاقه ونكثهم عهده وتبديلهم كتابه فيعاقبهم الله على ذلك حسب ما يستحقون.

والسبب في أن النصارى نسوا حظاً مما ذُكّروا به هو أن المسيح عليه السلام لم يكتب ما وصّاهم به من المواعظ والإرشادات ودعوتهم إلى توحيد الله وعبادته وحده وكان الذين اتبعوه من عامة الشعب وبعض الصيادين، كما أن شدة عداوة اليهود له ولأتباعه كان لها الأثر على دعوته.

ويظهر من تاريخ النصارى أن الذين كتبوا الأناجيل كثيرون جداً، وقد اعتمدت الأناجيل الأربعة المعروفة على ما عداها بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح عندما صار للنصارى دولة بدخول الملك قسطنطين في النصرانية.

جاء في كتاب (قصة الحضارة): «وترجع النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث، أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامي ٦٠ و ١٢٠م، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل»[١].

وبعد الكلام عن اليهود والنصارى قبل الإسلام وكيف نسوا نصيباً وافراً من أمور دينهم انتقل القرآن من الكلام عن ماضيهم إلى مخاطبة الحاضرين منهم في عهد رسول الله محمد ﷺ:

---

(١) تأليف ول ديورانت جـ ١١.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ وأهل الكتاب: هم اليهود والنصارى، وقد ذكر الكتاب بصيغة المفرد واليهود والنصارى لهم كتب وأسفار عدة لأن الكتاب اسم جنس يطلق ويراد به الجمع، وفي تسميتهم بأهل الكتاب مراعاة لجانبهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى أصول دينهم، وبيان أن لهم رابطة أُخوَّةٍ تجمعهم مع المسلمين فهم جميعاً أصحاب رسالات سماوية.

فالله سبحانه بيّن لليهود والنصارى أنه أرسل إليهم رسوله محمداً، وفي قوله تعالى ﴿رسولنا﴾ تعظيم وتشريف حيث أضافه الله سبحانه إلى ذاته، وتوجيه لهم باتباعه لأنه رسول مبلّغ عن الله ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُم تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ﴾ هنا نص صريح بأنهم كانوا يخفون أموراً من الكتاب الذي أُنزل على موسى، ومن الكتاب الذي أُنزل على عيسى عليهما السلام.

وما أخفاه اليهود والنصارى هو البشارات التي جاءت في كتبهم عن مجيء رسول من عند الله بعد عيسى عليه السلام يدعى أحمد، وحرفوها بتفسيرها على معانٍ أخرى. وكذلك ما أخفاه اليهود من عقوبة الرجم للزاني المحصن ـ أي المتزوج ـ وكذلك أخفى اليهود العلم بما يكون بعد الموت من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب، حتى أنك تقرأ التوراة التي بين أيدينا فلا تجد فيها ذكراً للحياة الآخرة، كما أن اليهود أخفوا تحريم الربا تحريماً عاماً وقصروا المنع على أكل الربا من الإسرائيلي فقط، أما غيره فحلال التعاطي بالربا معه ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي لا يظهر لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب فلا يتعرض لكم ولا يؤاخذكم به لأنه لا حاجة إلى إظهاره.

﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ أي جاءكم ـ أيها اليهود والنصارى ـ نور من الله، والمراد بالنور هنا الرسول محمد ﷺ لأنه يُهتدى به كما يُهتدى بالنور في الظلام، وقيل: النور هنا هو الإسلام، والكتاب المبين: هو القرآن الكريم فهو واضح في نفسه، مبين لما يحتاج إليه البشر لهدايتهم.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ سبل السلام: هي طرق السلامة وهي استعارة لطرق الحق التي لا خوف على السائر فيها من الزلل، أي أن من اتجه إلى مرضاة الله باتباع النور الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربه وعمل بالقرآن الذي أنزله الله عليه يهديه الله إلى طرق السلامة ويبعد عنه كل شقاء ﴿وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ والظلمات: استعارة للضلال، والنور استعارة للهدى، فهؤلاء الذين يتبعون نور الله يخرجهم سبحانه من ظلمات الكفر والضلال، ومن ظلمات الوثنية والخرافات التي طرأت على دين الله إلى نور التوحيد ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بمشيئته وتوفيقه ﴿وَيَهْدِيهِم إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ويهديهم الله سبحانه إلى طريق قويم لا اعوجاج فيه وهو طريق الإسلام.



﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

شرح المفردات

فمن يملك من الله شيئاً: أي فمن يقدر أن يمنع من أفعال الله شيئاً.

القرآن ينفي الألوهية عن المسيح عليه السلام

وبعد أن ذكر القرآن بأن اليهود حرفوا كلام الله، وأن النصارى نسوا نصيباً مما وعظوا به أتت الآية التالية مبينة ضلال النصارى حيث نسبوا الألوهية إلى المسيح عليه السلام:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِين قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والكفر هو نقيض الإيمان كما يطلق الكفر على الشرك بالله كأن يتخذ المرء مع الله إلّهاً آخر. فالذين ادعوا بأن المسيح هو إلّه قد خرجوا من حظيرة الإيمان إلى حظيرة الكفر والجحود بوحدانية الله.

ثم يبين القرآن عظمة الألوهية التي اختص بها الله سبحانه والتي هي فوق مقدور البشر:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ المسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ في الأَرْضِ جَميعاً﴾ يملك هنا بمعنى: يقدر، والمعنى: قل

يا محمد لهؤلاء النصارى لو أراد الله أن يُهلك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً فمن الذي يقدر على منعه من ذلك أو صرفه عنه؟ فالاستفهام هنا يفيد النفي أي لا أحد يقدر على منعه أو أن يحول دون إرادته. والتعبير بكلمة ﴿يملك﴾ يستفاد منه أن قدرة الله قدرة تملّك وليست قدرة مستعارة أو مأخوذة من غيره.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما﴾ أي الله وحده له الملكية التامة للتصرف في السماوات بطبقاتها المتعددة، وما تحتويه من نجوم وكواكب وغيرها، وله الملكية للأرض وما فيها من موجودات وكائنات حية، وله سبحانه ما بين السماء والأرض من فضاء وما يحتويه من هواء وسحاب وغير ذلك. وهذا دليل على نفي الألوهية عن عيسى لأنه لو كان إلهاً كما يقول النصارى لكان له شيء في ملك السماوات والأرض ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يبدع الله ما يشاؤه من المخلوقات، فقدرة الله قدرة مطلقة لا حد لها، فهو يخلق ما يشاء، يخلق الناس من أب وأم، وخلق آدم من غير أب ومن غير أم، وخلق عيسى من أم ومن غير أب، وهو سبحانه القائل في شأن عيسى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو سبحانه الإله المعبود، القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء أراده.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

شرح المفردات

فترة من الرسل: أي بعد مدة خلت من الرسل وانقطع فيها مجيئهم.

بشير: أي رسول من عند الله يبشرهم بحسن العاقبة للمؤمنين.

نذير: أي رسول من عند الله ينذرهم بسوء المصير للضالين.

بطلان ادعاءات اليهود والنصارى

ويتابع القرآن فيذكر بعض الأوهام التي استحوذت على عقول اليهود والنصارى حيث حكى الله عنهم بقوله:

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أي قال قوم من اليهود والنصارى نحن في القرب من الله بمنزلة أبنائه المدللين يعطف علينا ويرحمنا ولا يعذبنا ولنا ميزة على سائر الخلق.

وقد روي في أسباب نزول الآية أن جماعة من اليهود أتوا رسول الله فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا: ما تخوفنا يا

محمد! نحن والله أبناء الله وأحباؤه، وقالت النصارى مثل قولهم، فأنزل الله هذه الآية.

وكلمة (ابن الله) بمعناها الحقيقي محال على الله فهو سبحانه ليس له صاحبة ـ أي زوجة ـ وبالتالي لم يوجد له ولد.

وكلمة (ابن الله) وردت في أسفار العهد القديم والعهد الجديد في مواضع كثيرة في حق كل بارٍّ صالح، وثيق الصلة بالله، ومحبوب من الله، فقد جاء في إنجيل متى: «طوبى لصانعي السلام فإنهم أبناء الله يُدْعَوْن» [٥: ٩] وفي إنجيل يوحنا: «قال لها يسوع لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي لإخوتي وقولي لهم: «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهك» [٢٠: ١٧] ففي هذا النص ساوى المسيح بين أبوة الله له وبين أبوّة الله لقومه، ولكن النصارى تصرفوا بمفهوم هذه الأبوة فجعلوا المسيح الابن الحقيقي لله والابن المجازي بالنسبة إلى غيره.

وهناك احتمال آخر وهو أن تكون البنوّة هي البنوّة التي زعمها اليهود لِعُزَيْر إذا قالوا عُزَير ابن الله وهم أتْباعه وشيعته، كما ادّعى النصارى أن المسيح ابن الله وهم أتباعه فهم أبناء الله بهذا الاتّباع.

ثم يفنّد الله ادعاءاتهم في تتمة الآية ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي قل لهم يا محمد لو كنتم أبناء الله وأحباءه لما عذبكم بذنوبكم، لأن شأن المحب أن لا يعذب حبيبه وشأن الأب أن لا يعذب أبناءه.

وفي التوراة سرد لكثير من الذنوب التي اقترفها بنو إسرائيل وحصل بسببها تخريب الغزاة لبلدهم المرة بعد المرة وقتل ما لا يحصى من

سكانها واسترقاق البعض، كما أن النصارى ذاقوا الويلات والاضطهاد على يد أعدائهم بسبب ذنوبهم بالإضافة إلى تنكيل بعضهم ببعض بسبب نزاعاتهم واختلافاتهم المذهبية في أمور دينهم.

هذا وقد ورد في القرآن أن اليهود قد أقروا بأن العذاب سيقع بهم من جراء أفعالهم فقد نقل القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠] كما أن النصارى يقرون بأن الله سيحاسب الناس يوم القيامة ويجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

ثم يرد على مقولتهم بأنهم أبناء الله وأحبّاؤه ﴿بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي أنتم بشر من جملة ما خلق الله، وهو سبحانه الحكم العادل لا يحابي أحداً فهو يغفر لمن يشاء ممن يطيعه، ويعذب من يشاء ممن يعصيه، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم فإن العبرة بالإيمان الصادق والعمل الصالح وليس بالانتساب إلى الآباء والرسل ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ولله وحده ملك السموات والأرض وما بينهما من فضاء يتصرف فيهما حسب حكمته وإليه وحده مصير البشر ومرجعهم إليه يوم القيامة فيجازيهم على أفعالهم إن كانت خيراً فيجزيهم خيراً وإن كانت شراً فيعاقبهم بما أساءوا.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ رسولنا: المراد به محمد ﷺ. خاطب الله اليهود والنصارى

بأنه أرسل إليهم رسوله محمداً يبين لهم الشرائع والأحكام الإلهية، والحق من الباطل، بعد انقطاع من الرسل وفترة من الزمن والمراد بالفترة المدة التي لم يرسل الله فيها رسولاً من عنده لهداية الناس.

وقد جاء محمد ﷺ بالرسالة الإلهية بعد رسالة أخيه عيسى عليه السلام وقدرت هذه المدة بستة قرون[1] إلا قليلاً.

﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ أي أرسل الله إليكم محمداً لئلا تقولوا يا أهل الكتاب ما جاءنا رسول من عند الله يبشرنا بحسن العاقبة لمن يطيع الله، ولا نذير يحذرنا من سوء العاقبة لمن يضل عن سبيل الله **﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾** أي لا عذر لكم في عدم معرفة أوامر الله ونواهيه فقد جاءكم الرسول محمد يبشركم بالخير والسعادة إن صدّقتم به واتبعتم ما جاء به من الهدى، كما أنه جاء لينذركم بالعذاب والشقاء إن أعرضتم عنه وبقيتم على كفركم **﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** هنا بيان لشمول قدرة الله على كل شيء فلا يعجزه شيء أراده، فهو سبحانه قادر على عقاب من يعصيه، وإجزال الثواب لمن يطيعه.

---

(١) ولد الرسول محمد ﷺ سنة ٥٧١ ميلادية.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

شرح المفردات

وجعلكم ملوكاً: أحراراً، أسياد أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً للفراعنة.

الأرض المقدسة: المعظمة حيث جعلت مسكن الأنبياء وهي بيت المقدس وقيل فلسطين.

ترتدوا على أعقابكم: تنهزموا خوفاً من العدو.

فتنقلبوا خاسرين: فتصيروا خاسرين.

قوماً جبارين: شديدي البطش عظيمي الأجسام.

فافرق: فافصل.

الفاسقين: الخارجين عن طاعة الله.

يتيهون في الأرض: يسيرون متحيرين في الأرض لا يهتدون.

فلا تأس: فلا تحزن.

عصيان بني إسرائيل وعقوبة الله لهم

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الكلام عن بني إسرائيل وما جُبلوا عليه من عصيانٍ لرسل الله، وما في طبائعهم من لؤم وجبن حيث يؤثرون الراحة والذلة على الجهاد الذي فيه عزهم وكرامتهم، كما أن في الآيات التالية دروساً لأمة محمد ﷺ يتعلمون منها مغبة التقاعس عن الجهاد حيث يستدعي وجوبه، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ أي واذكر يا محمد حين قال موسى لقومه ناصحاً إياهم: تذكروا نعمة الله عليكم، وتذكّر النعمة يستدعي شكر الله مصدر النعم كلها، وطاعته وعدم عصيانه. ثم عدّد موسى تلك النِّعَم التي أسبغها الله عليهم: **﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُم أَنبِيَاءَ﴾** فقد جعل الله فيهم كثيراً من الأنبياء كإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام وغير هؤلاء من الأنبياء، ولم يبعث الله في أمة من الأمم أنبياء مثل ما بعث في بني إسرائيل **﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾** وجعلكم أحراراً أعزاء بعد أن كنتم مستعبدين لفرعون وقومه فالملوك هنا بمعنى الأحرار المالكين لأنفسهم وتدبير أمر أهليهم وأموالهم، وأن لهم بيوتاً وخدماً. ونعمة الحرية

والاستقلال التي أسبغها عليهم من أجَلِّ النِّعَم، وبالأخص بعد أن ذاقوا مرارة الرق والاضطهاد **﴿وآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ﴾** وأعطاكم الله من النعم ما لم يعطِ أحداً من عالمي زمانكم، حيث شق لكم البحر فسرتم فيه ونجوتم من فرعون وجنده حيث أغرقهم الله، وأنزل عليكم المنّ والسلوى لتأكلوا من الطيبات وأخرج لكم المياه الغزيرة من الحجر بعد أن داهمكم العطش في الصحراء، وظللكم بالغمام ليحجب عنكم حرارة الشمس.

وكان موسى قد أخبر قومه أن الله وعدهم بإسكانهم الأرض المقدسة، ولما وصل موسى إلى حدود تلك الأرض بعث اثني عشر رجلاً من كل سبط من بني إسرائيل رجلاً وهم النقباء الاثنا عشر الذين سبق ذكرهم، أرسلهم موسى إلى الأرض المقدسة ليتحسسوا أحوال سكان تلك الديار وليأتوه بخبر سكانها، فلما رجعوا من مهمتهم إلى موسى قالوا له: إن الأرض التي بعثتنا إليها هي أرض طيبة، كثيرة الثمار، غير أن سكانها قوم جبارون أقوياء، فأمرهم موسى أن يكتموا ما شاهدوه فلم ينصاعوا لأمره إلا رجلين منهم فإنهما سهّلا الأمر، وأما العشرة الباقون فإنهم أوقعوا الجبن في قلوب الناس. وفي الآيات التالية يذكر لنا القرآن الحوار الذي جرى بين موسى وقومه حينما أمرهم بدخول الأرض المقدسة:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ﴾ والأرض المقدسة هي المطهرة من الشرك وجعلت مسكناً للأنبياء قيل هي بيت المقدس، وقيل هي فلسطين. أي ادخلوا الأرض المطهرة المباركة **﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** أي التي قسمها وقدرها لكم إن آمنتم بالله وأطعتموه **﴿وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى**

أَدْبَارِكُمْ﴾ والأدبار: جمع دُبُر وهو الظهر، أي ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين منهزمين من خوف الجبابرة ولكن امضوا قُدُماً لأمر الله الذي أمركم به ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فإذا أحجمتم عن قتالهم يتبدّل أمركم من عزّ وسؤدد إلى ذلّ في الدنيا وخسران في الآخرة بسبب عصيانكم أمر ربكم.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾[1] أي قال بنو إسرائيل لنبيهم: يا موسى إن الأرض التي وعدتنا بدخولها يسْكنها قوم أقوياء عظيمو الأجسام، طوال القامة شديدو البطش لا قدرة لنا بقتالهم ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ وقالوا لنبيهم: إننا لن ندخل تلك الأرض حتى يغادرها أهلها طواعية من أنفسهم دون أن يكون لنا شأن معهم، فإن غادروها فإننا ندخلها دون حرب وقتال. قول ينمّ عن نهاية الجبن والتخاذل من بني إسرائيل كما أنه مطلب عجيب يظهر سخافة عقولهم، إذ كيف يخرج أهل البلد الأقوياء من بلدهم طواعية ليقدموها هدية لهؤلاء الجبناء؟

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي قال لهم رجلان من الذين يخافون الله ويخشون مخالفة أمره، وهما من الذين أنعم الله عليهم بنعمة الهداية، والمراد بالرجلين: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وكانا من ضمن الاثني عشر نقيباً الذين أرسلهم

(١) ذكر بعض المفسرين عن أحوال هؤلاء الجبارين وضخامة أجسامهم بما فيه الكثير من الخرافات والإسرائيليات بما لا تصدقه العقول السليمة، والتي قال عنها ابن كثير في تفسيره: إنه يستحيي من ذكرها، هذا مع العلم أن القرآن الكريم لم يذكر عنهم إلا صفة جبارين وهذه اللفظة لا تحتمل ما ذكروه من خرافات.

موسى إلى الأرض المقدسة ليأتوه بأخبار أهلها. هذان الرجلان قالا لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي ادخلوا عليهم من باب بلدهم وباغتوهم بالقتال في عقر دارهم بما يُلقي الرعب في قلوبهم، ولا تَدَعُوا لهم فرصة للتفكير في مقاومتكم ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ فإذا فعلتم ذلك أيّدكم الله بنصره وغلبتموهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ واعتمدوا على الله وحده، وفوّضوا أموركم إليه، ولا تخشوا عدوكم إن كنتم مؤمنين بالله حق الإيمان مصدّقين بوعده بالنصر لكم إذا أنتم أطعتموه.

لم تنفع بني إسرائيل موعظة الرجلين بل أصرّوا على التمرد والعصيان: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا﴾ قالوا لنبيهم بأنهم لن يدخلوا أرض الجبابرة أبداً أي مدى حياتهم ما داموا فيها ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ أي إذا كنت يا موسى مصمماً على دخول البلدة فاذهب أنت وربك لقتال الجبابرة فإننا هنا قاعدون منتظرون هزيمتهم. وفي قولهم: ﴿وربك﴾ وكأنهم يصورون الله بأنه إلَه موسى وليس إلَهاً لهم.

ما أعجب مقالتهم هذه التي تدل على اللؤم والبعد عن الأدب مع نبيهم موسى، أَبَعْدَ كل ما شاهدوه من المعجزات التي ظهرت على يد نبيهم، وبعد كل النعم التي أسبغها الله عليهم يكون منهم هذا الموقف العجيب؟ أمام هذا كله توجه موسى إلى ربه شاكياً:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي قال موسى: يا رب إني لا أملك أمر أحدٍ من قومي أحمله على طاعتك وامتثال أمرك، إلا

أمر نفسي وأمر أخي هارون. فأنا وهارون في طاعتك، ولا أحد من هؤلاء الجبناء أستطيع حمله على طاعتك ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فافصل يا رب بيننا ـ يريد نفسه وأخاه هارون ـ وبين هؤلاء القوم الذين خرجوا عن طاعتك بقضائك العادل. استجاب الله دعاء موسى وأخبره سبحانه بقوله:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي حرّم الله على الذين خالفوا أمره من قوم موسى دخول الأرض المقدّسة مدة أربعين سنة يتيهون أثناءها في صحراء سيناء حيارى لا يهتدون إلى الخروج منها جزاء جبنهم واستهانتهم بأوامر الله ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فلا تحزن يا موسى على هؤلاء الفاسقين إذا عُوقبوا بِهَذِهِ العقوبة الشديدة فإنهم مستحقون لهذا التأديب الإلهي.

«عاقب الله بني إسرائيل بهذه العقوبة الصارمة ليفني الجيل القديم الذي رضخ للطغيان في عهد حكام مصر ورضي بالعبودية عندهم وأصبح الجبن طبيعة لهم، ولينشأ جيل جديد يجمع بين حريّة البداوة وقسوتها وعدل الشريعة وهدايتها. ربّاهم الله هذه التربية ليمكّن الجيل الجديد بعد ذلك من دخول الأرض المقدسة. فعلينا أن نعتبر بهذه التربية الإلّهية ونعلم أن إصلاح الأمم بعد فسادها إنما يكون بإنشاء جيل يجمع بين حرية البداوة وما فيها من استقلال وخشونة وبين العمل بشريعة الله وما فيها من عدالة وهداية ورحمة»[١].

(١) باختصار وتصرف عن تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.

فالشعوب التي تنشأ في عهد الاستبداد وتُعامَل بالظلم والاضطهاد من قِبَلِ حكامها تفسد أخلاقها وتذلّ نفوسها، وهكذا كان حال بني إسرائيل فقد أفسد ظلم الفراعنة نفوسهم وطبعها بطابع المهانة والذل والجبن إلى أن جاءهم موسى يدعوهم إلى الجهاد لدخول الأرض المقدسة، ولكن نفوسهم التي ألفت الذل والاستعباد لم تطاوعهم على الجهاد لدخول الأرض المقدسة بل أجابوا موسى بهذه المقولة التي تشع باللؤم والجبن: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ هكذا كان حال بني إسرائيل في عهد نبيهم موسى، أما حال المسلمين في عهد نبيهم محمد ﷺ فيتمثل بما قاله المقداد بن عمرو عن نفسه وعمن حوله من المسلمين عندما استشارهم النبي لقتال المشركين يوم بدر: «يا رسول الله امضِ لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون. وهكذا قاتل المسلمون مع نبيهم يوم معركة بدر وانتصروا فيها على المشركين انتصاراً باهراً بالرغم من قلة عددهم وكثرة عدد أعدائهم، وذلك بفضل إيمانهم وطاعتهم لرسول الله.



﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٨) إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (٣١) مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ (٣٢)﴾

شرح المفردات

واتل: واسرد على مسامع أمتك يا محمد وعلى اليهود والنصارى.

قرّبا: قدّما.

قُرباناً: ما يتقرب به إلى الله من ذبيحة أو صدقة أو نحوهما.

بسطت: مددت.

تبوء: ترجع.

بإثمي وإثمك: بقتلك إياي، وإثمك قبل ذلك.

فطوّعت: فسهّلت وحسّنت.

يبحث في الأرض: يحفر في الأرض.

سوءة أخيه: جيفته أو عورته.

يا ويلتا: كلمة تحسّر وجزع تستعمل عند وقوع المصيبة.

فأواري: فأستر.

بالبينات: بالحجج الواضحات.

لمسرفون: لَمُجاوزون الحد في الظلم.

الإثم العظيم لقتل النفس البريئة

وبعد أن بين القرآن سابقاً ما كان لليهود من بسط أيديهم بالأذى للنبي ﷺ ومحاولة قتله، ونقضهم المواثيق، وادعائهم الكاذب الفضل على الناس، بيّن الله علة ذلك وهي الحسد الكامن في نفوسهم، والحسد داء نفسي قديم منذ عهد آدم عليه السلام.

وفي الآيات التالية يسرد علينا القرآن الكريم قصة ولدي آدم التي هي مثال للحسد وما ينشأ عنه من إجرام، قال الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾ وابنا آدم هما: قابيل وهابيل اللذان من صُلبه. هابيل: التقي الورع، وقابيل: الباغي الظالم. والقربان: ما يتقرب به المرء إلى ربِّهِ من صدقة أو نسك أو ذبيحة. والمعنى: واسرد يا محمد على مسامع اليهود وعلى أمتك خبر وَلَدَيْ آدم قابيل وهابيل خبراً متلبساً بالحق حين قدّم كل من الأَخَوَيْن شيئاً يتقرب به إلى الله **﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾**

وهذان الأخوان لم يكونا على درجة واحدة من التقوى والإخلاص لله تعالى. فكان هابيل صاحب غنم وقد قرّب إلى الله أكرم غنمه وأسمنها قدّمها طيبة بها نفسه، وأما قابيل فكان صاحب زرع فقرّب إلى الله أردأ زرعه غير طيبة بها نفسه.

وكانت علامة القبول من الله أن تأتي نار على القربان الذي رضيه سبحانه فتأكله وإن لم يتقبل الله القربان لم تنزل عليه نار، فجاءت النار فأكلت الشاة وتركت الزرع. ولما رأى قابيل أن قُربانه قد رُفض امتلأ قلبه حسداً وحقداً على أخيه فخاطبه ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ هذه الكلمة هي كلمة الظالم الآثم الذي خلا قلبه من الرحمة، وقد أكّد قابيل تصميمه على قتله بلام القسم ونون التوكيد، فكان جواب هابيل على تهديد أخيه له: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي أن تقوى الله هي سبب القبول عنده سبحانه، فإذا وجدت كان القبول، وإذا انتفت لا يحصل القبول. والتقوى التي اعتبرت للقبول من الله تتضمن خشية الله والإخلاص له، واتقاء الذنوب والآثام.

وتابع هابيل قوله لأخيه: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أي لئن مددت إليّ يدك لتقتلني فأنا لست ممن يتصف بهذه الصفة المنافية لتقوى الله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فخوف الله هو الذي جَعَله يقف هذا الموقف السليم وأن لا يقابل الإساءة بمثلها، وفي الوقت نفسه إرشاد لأخيه الذي يحاول قتله بأن يقف موقفه السليم ويخشى الله رب العالمين.

ثم يحذّر هابيل أخاه قابيل من الإقدام على قتله لما يترتب على

ذلك من عقاب الله له:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي إن قتلتني أكون بذلك مظلوماً وتمضي متحملاً بإثم قتلي وسائر آثامك التي أوجبت أن لا يتقبّل الله منك قربانك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي فتكون بفعلك هذا من أصحاب النار الذين يعذبون بها والملازمين لها في الآخرة، وذلك عقاب الظالمين الذين يعتدون على عباد الله الأبرياء.

ويتابع القرآن فيبيّن ما انتهى إليه أمر قابيل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ أي سهّلت له نفسه أمر قتل أخيه وشجعته على ذلك، ويُروى أن قابيل صبر حتى نام هابيل فضرب رأسه بحجر كبير فقتله وتركه بالعراء ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ﴾ أي خسر دنياه وآخرته، أما خسران دنياه فكان بأن أسخط والديه وفقد أخاه الطيب، وأما خسران آخرته فكان بأن أسخط ربه وصار إلى عذاب النار وذلك هو الخسران المبين.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ﴾ أي فأرسل الله غراباً، وجعله يحفر أمامه في الأرض ـ بمنقاره ورجليه ـ حفرة ثم ألقى فيها غراباً آخر ميتاً وواراه بالتراب ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ فعل الغراب ذلك ليُري قابيل كيف يواري ويستر جثة أخيه وعورته، أمام هذا المشهد نطق قابيل بهذه الكلمة ﴿قَالَ يَاوَيْلَتَا﴾ كلمة تحسّر وتلهّف وجزع، وهي كلمة تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ﴾ أي أعجزت أن أفعل مثل ما فعل الغراب،

قال ذلك لأنه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه ﴿فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخي﴾ فأستر جثة أخي وعورته عن الأعين بدفنه في التراب ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أي على قتل أخيه، ولا سيما بعد أن رأى جثته بين يديه، وأحسّ بالبلية التي وقع فيها، ومقدار الشر الذي ارتكبه، ولذلك عبّر بلفظة ﴿أَخِي﴾ التي توحي بالمودة والمحبّة بين الإخوة، بدل الحسد الذي أدى به إلى قتل أخيه.

فالحسد سبب هذه الجريمة النكراء، وهو أول ذنب عصى به الإنسان ربه على الأرض كما أنه الباعث على كثير من الجرائم.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ﴾ فالله سبحانه يقول: من جراء ما فعله قاتل أخيه وشناعة جرمه قضينا على بني إسرائيل في الكتب المنزلة عليهم من عندنا ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي أن من قتل نفساً بغير سبب القصاص الذي شرعناه للقاتل عن عمد ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الأرضِ﴾ أو غير سبب فساد في الأرض. والفساد يكون بالإخلال بالأمن وإهلاك الحرث والنسل كما تفعل العصابات المسلحة وقطاع الطرق بقتل الأنفس ونهب الأموال ﴿فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ أي من قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعاً. تأمل قوله تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً﴾ فلم يخصّها الله سبحانه برابطة القومية أو الجنسية أو الدين بل هي النفس البشرية مطلقاً، فما أسمى معاني القرآن وحرصه على احترام النفس الإنسانية والحفاظ عليها والتي كرّمها الله في موضع آخر من القرآن حيث قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ثم يبيّن القرآن مبلغ الثواب لمن يحافظ على النفس الإنسانية ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ أي ومن أحيا نفساً من غرق أو حرق أو هلكة أو دفاعاً عنها من القتل على أيدي المجرمين، أو من عفا عمن وجب له قتله فله من الثواب كإحياء الناس جميعاً. وفي هذا النص إشادة بالجسم الطبي ومكانته إذا اتخذ ذلك لخدمة الإنسانية مبتعداً عن ابتزاز الناس وإرهاقهم بالأجور العالية للإثراء العاجل، كما أن في ذلك دعوة لمحاربة المخدرات، تلك السموم القاتلة التي تفتك بالناس، والضرب بيد من حديد على مروجيها لأنهم يتسببون بقتل الناس.

هذه الآية التي نحن بصددها سُئل عنها الحسن رضي الله عنه حيث قيل له: أهي لنا ـ أي للمسلمين ـ كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: أي والذي لا إلّه غيره هي لنا كما كانت لبني إسرائيل، وما جَعَلَ اللَّهُ دماء بني إسرائيل أكرم من دمائنا.

وعلى ضوء حكم هذه الآية فليخش الذين يرتكبون قتل الأنفس بداعي الأخذ بالثأر أو بداعي المحافظة على الشرف، فليس للإنسان أن يقتص من أحد بيده، بل مرجع القصاص كله بيد الحاكم، فما كانت النفس الإنسانية عرضة لأهواء الناس وهدفاً لتنفيس غضبهم وظنونهم الآثمة.

ثم يختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالبَيِّنَاتِ﴾ أي ولقد أتت بني إسرائيل رسل من الله بالآيات الواضحة والحجج البينة على حقيقة ما أُرسلوا به إليهم، وصحة ما دعوهم إليه من أداء فرائض الله واحترام النفس الإنسانية ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثيراً مِنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ

﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ ولكن لم تنفعهم إرشادات رسل الله ولا هذّبت نفوسهم بل إن كثيراً منهم يسرفون في الأرض بالقتل وسائر ضروب البغي.

ومن يقرأ تاريخ بني إسرائيل يَرَ صفحاتٍ سوداء من الإجرام التي اقترفوها في حق الشعوب، وهذه أرض فلسطين تشهد أفظع المذابح والاضطهادات والإبادة للعرب بأيديهم الملطخة بالدماء.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾

شرح المفردات

يحاربون الله ورسوله: هم قطاع الطرق الذي يخرجون عن طاعة الله ويخالفون أمره.

تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: أي تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس.

ينفوا من الأرض: يبعدوا أو يسجنوا.

خزي: ذل وفضيحة.

عقوبة قطاع الطرق

وبعد أن بيّن الله تعالى اعتداء أحد ابْنَيْ آدم على أخيه بالقتل ظلماً، وأن بعض النفوس يغلب عليها طابع الشر، ولا يردعها عن ذلك إلا القصاص العادل، لذا شرع الله بعض العقوبات في حق المجرمين لترهبهم وتحول بينهم وبين الإجرام، قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وَوَصْفُ المحاربين لله ورسوله يُطلق على الذين يحملون السلاح على الناس في مدينة أو قرية أو طريق أو خارج المدن بقصد الاعتداء على الناس بالقتل والسلب أو بِتَرْوِيعِهِم. ومحاربة الناس لله تعالى على وجه الحقيقة غير ممكنة لتنزهه عن أن يكون جسماً يقاتل، ولأن المحاربة تستلزم أن يكون كل من المتحاربين في جهة ومكان والله منزه أيضاً عن ذلك، كما أنه سبحانه لا يغالب، فيكون التعبير بمحاربة الله من نوع المجاز: أي الذين يحاربون شرع الله ودينه ويعتدون على أرواح الناس وأموالهم، وهؤلاء المحاربون لله ورسوله يُطلق على أفعالهم «جريمة قطاع الطرق» أو (جريمة المحاربة)[1]. والمغتال كالمحارب وهو أن يحتال في قتل إنسان ليأخذ ماله وإن لم يشهر السلاح بأن دخل عليه بيته أو صحبه في سفر فأطعمه سمًّا فقتله.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً﴾ والسعي هو الحركة السريعة المستمرة، والفساد: ضد الصلاح، فالإخلال بالأمن والتعدي على الأنفس وسلب الأموال، والاتجار بالمخدرات وترويجها كل ذلك

(١) المحاربة: صيغة مفاعلة من الحرب ومعناها التعدي على الناس بالقتل وسلب أموالهم.

إفساد في الأرض، وجزاء هؤلاء المفسدين ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ والتقتيل هنا المراد به قتل المجرمين، وذكر التقتيل بصيغة التفعيل للمبالغة والتكثير في قتالهم وعدم الرأفة بهم ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ ذكر الصلب أيضاً بصيغة التفعيل لتفيد التشديد في العقوبة، والصلب وهو وضع الجاني بعد قتله مشدوداً على مكان مرتفع تشهيراً به، وليكون عبرة لغيره من المجرمين وردعاً لهم عن ارتكاب الجرائم، ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام وقيل لمدة يوم واحد ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِم وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ﴾ أي لا تقطع الأيدي والأرجل من جانب واحد من الجسم، بل يكون القطع من جانبين مختلفين، فإذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى وتبقى بدون قطع اليد اليُسرى والرِّجل اليمنى، ومعنى من خلاف: أي من جانب خلاف الآخر ﴿أَو يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ والمراد نفيهم من الأرض التي اتفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى ليتفرقوا ولا يجتمعوا على ذلك الشر الذي ارتكبوه، وفسر الإمام أبو حنيفة النفي بالحبس.

ولكن ما هو الحكم في هذه الآية وكيف ينفذ؟ هناك رأيان، الأول هو أن لفظ ﴿أَوْ﴾ الوارد في الآية للتفصيل في كيفية إيقاع العقوبة في الجاني، فإذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصُلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يقتلوا نفوا من الأرض[1].

أما الرأي الثاني: فهو أن لفظ ﴿أَوْ﴾ الوارد في الآية هو للتخيير، أي أن الإمام مخير في أمر المحاربين فإن شاء قتل، وإن شاء صلب،

(١) هذا ما روي عن ابن عباس وهذا ما قال به الشافعي.

وإن شاء قطع الأيدي والأرجل وإن شاء نفى من الأرض، والتخيير هنا فيه إجازة مطلقة للإمام ليعالج الجريمة بما يراه أقرب إلى المصلحة العامة، ويقول الإمام مالك: أَسْتَحْسِنُ أن يأخذَ الحاكمُ في الذي لم يَقْتُل بأيسر العقاب ولا سيما إن لم يكن ذا شرور معروفة وأما إن قتل فلا بد من قتله ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ذلك الذي ذكر من العقاب لأولئك المحاربين المفسدين هو لهم ذل وفضيحة في الدنيا ليكونوا عبرة لغيرهم من المفسدين ولهم في الآخرة مع الذل والفضيحة في الدنيا عذاب عظيم في جهنم.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي أن توبة قطاع الطرق قبل الظفر بهم تُسقط عنهم عقوبة المحاربة التي ذكرناها والتي هي من حدود الله[1]. أما ما يتعلق بحقوق العباد فلا يسقط عنهم بالتوبة قبل القدرة عليهم. وحقوق العباد هي ما شرعه الإسلام من القِصاص[2] من القاتل وجعل مصيره بيد ولي القتيل، فإما أن يطلب من الإمام قتله، أو يختار العفو عنه مع أخذ الدية أو العفو عنه مع التنازل عن الدية، كما أن من حقوق العباد أن يرد المحارب ما أخذ من أموال الناس ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إذا تاب

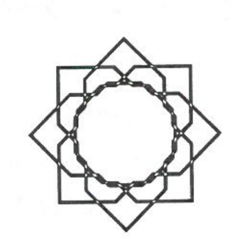
(١) جرائم الحدود هي التي شرع الله لها عقوبة مقدرة حقاً لله تعالى وهي: الزنا، والقذف، والسرقة، وقطع الطرق، وشرب الخمر. وجرائم الحدود يعود تنفيذ العقوبة فيها إلى الإمام، فليس فيها عفو، ولا إبراء، ولا شفاعة.

(٢) القِصاص في الشرع هو أن يحكم الإمام على الجاني من العقوبة مثل ما جنى وذلك في جرائم القتل والجروح التي اقترفت عن عمد، وتسقط عقوبة القصاص بعفو المجني عليه عن الجاني إن كان حياً، وبحال وفاته ينتقل حق القصاص إلى ورثة المجني عليه.

المحاربون وأقلعوا عن جرائمهم فإن الله يتجاوز عن سيئاتهم وهو سبحانه رؤوف رحيم بعباده.

هذه أحكام قطاع الطرق التي شرعها الله وقد يرى فيها البعضُ قسوة وشدة على المجرمين، ولكنهم لو أمعنوا النظر في أفعال قطاع الطرق وما ينشأ عنها من مآسٍ بحق الأبرياء وما يحصل من إخلال بالأمن لأقرّوا بعدالة عقوبات الإسلام في حق هؤلاء المجرمين، هذا وإن تطبيق العقوبة على أفراد قلائل فيه ردع للمجرمين عن تنفيذ إجرامهم بعد أن رأوا ما حل بغيرهم من العذاب.

وعقوبة الإسلام علاج لما يحصل حالياً في بعض دول أميركا الجنوبية وغيرها حيث تكثر العصابات المسلحة التي تسطو على البنوك وتعتدي على السكان جهاراً، ليلاً ونهاراً بقصد السلب والنهب، كما أنها تخطف النساء وتغتصبهن، وتتاجر بالمخدرات وتروجها في المجتمع، يفعلون ذلك ويستسهلونه لأن القوانين عندهم في حق المجرمين ليس فيها من شدة العقوبة ما يردعهم عن سوء أفعالهم.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾﴾

شرح المفردات

وابتغوا: واطلبوا.

الوسيلة: هي ما يتقرب به إلى الله من فعل الطاعات وترك المعاصي.

عذاب مقيم: عذاب دائم.

التقرّب إلى الله بالأعمال الصالحة

وبعد أن ذكر القرآن جزاء المحاربين لله ورسوله عقّب على ذلك بدعوة المؤمنين إلى العمل بما يقربهم إلى الله سبحانه:

﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ النداء موجه للمؤمنين لأن مقتضى الإيمان أن يستجيب المؤمنون لما يدعوهم إليه ربهم. والأمر بتقوى الله يعني اتقاء سخطه وعقابه بطاعته واجتناب معاصيه، ولا شك أن النفس إذا اتجهت إلى تقوى الله تغلّب عليها جانب الصلاح على جانب الشر **﴿وَٱبْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾** واطلبوا إليه الوسيلة لطاعته سبحانه، وطلب مرضاته، والتقرب إليه بترك المعاصي **﴿وَجَاهِدُوا في سَبِيلِهِ﴾** وسبيل الله

هو طريق الهدى الذي دعا إليه سبحانه وتعالى والذي فيه صلاح الإنسان ودفع الفساد في الأرض، وإقرار العدالة والحق فيها. والجهاد: هو بذل أقصى الجهد في تحقيق تلك الغاية الإنسانية العليا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لعلّكم تفوزون برضاء الله، والحياة الطيبة التي لا يشوبها كدر.

والوسيلة ورد ذكرها في الحديث الشريف بأنها درجة في الجنة مختصة برسول الله محمد ﷺ حيث قال: «من قال حين يسمع النداء «أي الأذان»: اللّهم رَبَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[1].

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليَّ فإنه من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلاّ لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة»[2].

وابتغاء الوسيلة إلى الله استدل بعض الناس به على مشروعية الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى والعباد والقسم بهم بأن يقال: اللّهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا.. ومنهم من يقول للغائب أو الميت من عباد الله الصالحين يا فلان، ادع الله تعالى أن

(١) أخرجه الجماعة إلا مسلماً.

(٢) أخرجه مسلم.

يرزقني كذا وكذا، ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة، وكل ذلك بعيد عن شرع الله حيث جاء في القرآن: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وجاء في الحديث الشريف: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

وتحقيق الكلام في هذا المقام: أن الاستعانة بمخلوق وجعله وسيلة ـ بمعنى طلب الدعاء منه ـ لا شك في جوازه إن كان المطلوب التوسل منه حياً. وأما إذا كان المطلوب منه التوسل ميتاً أو غائباً فلا يشك أي عالم في أنه غير جائز، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من السلف الصالح، ولم يرد عن أحد من الصحابة أنه طلب من ميت شيئاً.

وفي هذا الزمن نرى أن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله من الأولياء الأحياء منهم والأموات، وتضرعوا لهم على أعتاب أضرحتهم، وهذا ليس من التوسل المباح في شيء، وقد عدّه بعض العلماء شركاً بالله.

ويتابع القرآن فيوضح أن الله لا يقبل الفداء من الكفار عن العذاب في الآخرة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ أي أن الذين جحدوا وحدانية الله وأشركوا به وجحدوا ما جاءت به الرسل من عند الله، لو أنهم يملكون ما في الأرض جميعاً من أموال وزروع وكنوز ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ وملكوا مثلها معها ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي لو بذلوا كل ما يملكون ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة الذي استحقوه بكفرهم ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ أي لما تقبل الله منهم ذلك

فداء لما هم فيه من العذاب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم عذاب شديد موجع.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ يتمنى هؤلاء الكفار أن يخرجوا من النار بعد أن ذاقوا ويلاتها ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ ولكن الحال أنهم ليسوا بخارجين منها أبداً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ولهم عذاب دائم يلازمهم ولا ينقطع عنهم.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

شرح المفردات

كسبا: عملا.

نكالاً لهما: عقاباً لهما يردعهما عن معاودة السرقة.

يتوب عليه: يقبل توبته.

عقوبة السرقة

وبعد أن بيّن القرآن عقوبة قطاع الطرق انتقل إلى بيان عقوبة السرقة التي تتم خفية عن العيون، قال تعالى:

﴿والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما﴾ الخطاب موجه للحكام الذين يرجع إليهم تنفيذ العقوبات التي شرعها الله، أي فاقطعوا يد السارق من الرجال ويد السارقة من النساء. وقطع اليد يكون من مفصل الكف. ولكن ما حكم من يعاود السرقة؟ قال جمهور من الصحابة: «إذا سرق قُطعت يده اليمنى، فإن سرق بعد ذلك قُطِعَت رجله اليسرى، فإن سرق لم يُقطع وحبس» وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وصاحباه. وتقطع الرِّجل من المفصل الظاهر الذي يلي الكعب. فالله سبحانه أوجب قطع اليد ليمنعه من الأخذ والبطش بها، وأمر بقطع الرِّجل ليمنعه من المشي بها ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ أي ذلك القطع جزاء على فعلهما ﴿نَكالاً مِنَ اللَّهِ﴾ عقوبة من الله على لصوصيتهما ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله هو القوي الغالب فلا يفوته المعتدون، حكيم فيما شرع من هذه العقوبة للقضاء على هذه الجريمة النكراء.

والسرقة هي أخذ المال على سبيل الاستخفاء دون طعن بسلاح أو تهديد به، أما إذا اقترنت السرقة بالتهديد بالسلاح فحينئذ يكون الحكم عليها حكم قاطع الطريق ويشترط في السرقة التي تستوجب العقوبة عدة شروط:

أولاً: أن يكون السارق عاقلاً بالغاً فالمجنون لا عقوبة عليه إذا سرق والصغير لا تقطع يده وإنما يضمن وليه قيمة المسروق مع تأديبه.

ثانياً: أن يأخذ السارق مال الغير الذي ليس له فيه أدنى ملك، أما إذا كان شريكاً وسرق من مال الشركة فلا يعتبر عمله سرقة وإنما يعتبر خيانة فتبدل عقوبة قطع اليد بعقوبة أخرى يراها القاضي مناسبة، وحكم القاضي يسمى عندئذ تعزيراً[١].

ثالثاً: أن يأخذ السارق مال الغير من حرزه المعد لحفظه (أي المحل المحفوظ به) فالمال الضائع من صاحبه، والثمر الذي يكون في الشجر بلا حائط أو سياج، والماشية التي لا راعي لها، والزرع المحصود ونحو ذلك فلا قطع فيها لليد ولكن يعزر الآخذ بعقوبة أخرى.

والحرز نوعان: حرز بالمكان وحرز بالحافظ.

فالحرز بالمكان هو كل بقعة معدّة لحفظ المال والمقتنيات وممنوع الدخول إليها إلا بإذن أصحابها كالمنازل والحوانيت وحظائر الماشية.

والحرز بالحافظ وضع المال تحت بصر من يقوم على حفظه، مثال ذلك شخص دخل محلاً تجارياً يتّجر صاحبه بالأقمشة والثياب فغافل صاحب المحل وسرق ثوباً من القماش فهذا الشخص السارق تقطع يده. كما أن النشال عليه عقوبة القطع.

رابعاً: أن لا تقل قيمة المسروق عن ربع دينار لقول النبي ﷺ «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار[٢] فصاعداً»[٣] كما أن للفقهاء آراء

(١) التعزير: هو التأديب بما يراه الحاكم زاجراً للمذنبين بما لم يرد به نص في العقوبة.

(٢) الدينار يساوي: ٤,٢٥ غرام ذهباً.

(٣) أخرجه مسلم.

أخرى في هذا الباب والحكمة في هذا التحديد هي أن الإسلام جعل سبب قطع اليد فيما له قيمة. أما ما دون ذلك فإنه لا يوجب قطع اليد لقلته بل تجب عليه عقوبة التعزير.

خامساً: أن لا تكون السرقة عن حاجة ملحة كالجوع الشديد ففي تلك الحالة يعدل عن عقاب السرقة إلى عقاب أخف وطأة، فإن عمر ابن الخطاب لم ينفذ قطع اليد في عام المجاعة.

سادساً: السرقة من الأقارب. يرى جمهور الفقهاء عدم قطع يد السارق إذا وقعت السرقة من الأصول على الفروع، فلا تقطع يد الأب إذا سرق مال ولده وإن سفل ـ أي ابن الابن ـ ويستوي في ذلك الأم والجد والجدة لأب أو لأم، وكذلك لا تقطع يد الفرع إذا سرق من الأصل فلا تقطع يد الولد إذا سرق من مال أبيه وإن علا كالجد، ولكن يعاقب بعقوبة أخف وطأة.

سابعاً: قال بعض الفقهاء: إنه لا قطع لليد في الأموال غير القابلة للادخار أي التي يتسارع إليها الفساد كاللحم والفاكهة الرطبة واللبن والخضر، كما اتفق الفقهاء على أن سرقة ما يحرم تناوله لا قطع فيها كسرقة الخمر أو لحم الخنزير.

وإذا اشترك جماعة في السرقة قطعت يد كل منهم إن بلغت حصته مما سرقوا ربع دينار.

وهناك أحكام أخرى في موضوع السرقة ذكرها الفقهاء يرجع إليها في كتب الفقه.

وعلى الحاكم أن يتثبت بعناية من واقعة السرقة وظروفها ودواعيها

وأن يعدل عن قطع يد السارق عند وجود شبهة لقول النبي ﷺ: «ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»[1].

وتثبت السرقة بالبينة وبالإقرار، والبيّنة هي الأدلة الثابتة، والإقرار هو اعتراف المتهم بالذنب.

ثم يفتح الله أمام السارق باب التوبة ويحثه عليها بقوله:

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾ فمن تاب من بعد سرقته واعتدائه على أموال الناس وردّ ما سرقه وأصلح عمله واستقام **﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾** فإن الله يتقبل توبته **﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** إن الله واسع المغفرة والرحمة.

والتوبة قبل الترافع إلى القاضي إذا صحبها رد المسروق إلى مالكه تمنع إقامة الحد باتفاق الفقهاء، أما إذا كانت بعد الترافع وإثبات السرقة فلا بد من القطع وهذا ما قاله أبو حنيفة ومالك.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم ـ أيها المكلف ـ أن الله تعالى له السلطان الكامل على السماوات والأرض وما فيهما من كائنات ومخلوقات **﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** أي يعذب الله من يشاء من خلقه في الدنيا بسبب معصيته إياه ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا لمن تاب من كفره ومعصيته إياه فينقذه

(١) أخرجه الترمذي والبيهقي في السنن.

من الهلكة ويُنَجِّيه من العقاب **﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾** والله سبحانه عظيم القدرة على كل شيء.

قد يرى البعض أن في قطع يد السارق حكماً قاسياً، ولكن إذا تمعنّا في الأخطار التي تنجم عن السرقة لرأينا أن عقوبة الإسلام في حق السارق عادلة، وذلك لأن السرقة في حي أو قرية أو مدينة تروّع سكانها أجمعين وتفقدهم الأمن والطمأنينة، كما أن السرقة لا تخلو من أخطار، فقد يرتكب السارق جريمة قتل إذا شعر أن صاحب المنزل أحس به فيقدم على قتله. والتخلص منه حتى لا يقع في قبضته.

وعقوبة السرقة في القوانين الوضعية لا تزجر السارقين، بل تراهم يعاودون السرقة مرات عديدة حتى ضاقت بهم السجون.

فاللص حين يقدم على جريمته هو مطمئن إلى أن أقصى ما سَيَتَعَرَّض له إن وقع في أيدي رجال الأمن هو السجن شهوراً أو سنوات قلائل، وهذا لا يوازي ما جمعه في سرقته من مال حرام، يوفر له حياة مترفة بعد خروجه من السجن.

فتطبيق عقوبة الإسلام بقطع يد السارق ترهب المجرمين من الإقدام على السرقة أو تحول بين السارق وبين معاودة السرقة لأن قطع يده يشل حركته ويمنعه من السرقة بسهولة. كما أن عقوبة قطع اليد للسارق تلحق العار والفضيحة بصاحبها مدى الحياة، إذ إن المجتمع يتأبى ذلك الشخص وينظر إليه نظرة احتقار وإذلال له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

شرح المفردات

يسارعون في الكفر: يقعون فيه بسرعة ورغبة.

ولم تؤمن قلوبهم: هم المنافقون.

هادوا: أي اليهود.

يحرفون الكلم من بعد مواضعه: يؤولون الكلام في التوراة على غير تأويله.

ومن يرد الله فتنته: أي من يرد الله إضلاله أو عذابه.

خزي: إهانة وفضيحة.

أكّالون للسحت: أي كثيرو الأكل للمال الحرام كالربا والرشوة ونحوهما.

بالقسط: بالعدل.

يتولون: يعرضون عن حكم الرسول.

من صفات اليهود والمنافقين

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام على المنافقين واليهود الذين تجمعهم صفة الكفر والكذب مبيناً ما عليه اليهود خاصة من ضلال وتحريف لكتاب الله:

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِين يُسَارِعُون في الكُفْرِ﴾ وفي نداء الله للنبي محمد بقوله: **﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾** زيادة تشريف له وتعظيم لأن تبليغ الرسالة الإلهية أخص وأشمل من النبوة. والمسارعة في الشيء: الوقوع فيه بسرعة ورغبة. والمعنى: لا تحزن يا محمد على الذين يتهافتون على الكفر والإسراع فيه **﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِين هَادُوا﴾** فهؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تصدق به قلوبهم هم المنافقون. والذين هادوا: هم اليهود، أي أن المسارعين في الكفر فريقان: فريق المنافقين وفريق اليهود **﴿سَمَّاعُونَ لِلكَذِبِ﴾** وسمّاع: صيغة مبالغة من سامع، أي يسمعون الكذب كثيراً سماع قبول، وذلك الكذب الذي يقبلونه هو ما يقوله رؤساؤهم من الأكاذيب في دين الله في تحريف التوراة وفي الطعن في النبي محمد ﷺ. وهذه الصفة تحتمل أن تكون صفة للمنافقين ولبني إسرائيل لأنهم جميعهم يسمعون الكذب بعضهم من بعض ويقبلونه **﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ**

آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي أنهم أيضاً أعين وجواسيس لقوم آخرين كانوا لا يحضرون مجلسك يا محمد تكبّراً وعناداً لكي ينقلوا إليهم أخبارك عن كذب وافتراء ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ صفة لليهود فيما حرفوا من التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي من بعد استقرار مواضعه وبيان الحلال والحرام منه، والتحريف يكون على ضروب شتى فيكون إما بتغيير الألفاظ والزيادة والنقص فيها، وإما بتفسير الكلام بغير ما تدل عليه الألفاظ، وتوجيه المعاني إلى غير مقاصدها، واليهود حرفوا التوراة بكل أنواع التحريفات. وهذه الآيات هنا روي أنها نزلت في اليهود حين جاءوا إلى رسول الله فقالوا له: إن رجلاً منا وامرأة زنيا ـ وكانا مُحْصَنَيْنِ ـ فقال لهم رسول الله: ما تجدون في التوراة؟ ـ أي عقوبة لهما ـ قالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها آية فأتوا بالتوراة، فأَتَوْا بها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم تلوح، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله فَرُجِما.

ثم يبين القرآن غاية اليهود من طلبهم الفتيا من رسول الله في شأن الرجل الذي زنى بعد إحصانه بامرأة من اليهود قد أحصنت:

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي يقولون لمن أرسلوهم إلى رسول الله ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا: إن أفتاكم محمد بالجلد لهما عوضاً عن الرجم فخذوا هذا الحكم وارضوا به، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك والرضا به،

ولكن رسول الله أفتى برجم الزانيين بعد أن تبين له أن التوراة تحكم برجم الزاني المحصن، والرجم هو قذف الزاني المحصن بالحجارة حتى الموت ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ الفتنة: من معانيها العذاب والضلال والاختبار، والمعنى: من يرد الله أن يعذبه لكفره وضلاله، أو من يرد الله أن يحكم بضلاله لسوء أفعاله، أو من تعلقت إرادة الله بأن يختبره في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فلن تستطيع يا محمد دفع ذلك عنه وإنقاذه مما هو فيه لأنك لا تملك له من الله شيئاً في دفع العذاب عنه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ هؤلاء الذين اتصفوا بالنفاق والكذب وتحريف كتاب الله لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من دنس الكفر وخبث الضلاله بطهارة الإسلام ونظافة الإيمان، فقد طغى الشر على قلوبهم حتى حجب عنها نور الهداية ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ الخزي: هو الإهانة والفضيحة، فخزي المنافقين هو افتضاح نفاقهم وازدياد غمهم حين يرون انتشار الإسلام وانتصاره على أعدائه، وخزي اليهود بالذل وظهور كذبهم في كتمان ما في التوراة وإجلائهم عن ديارهم ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الخلود في نار جهنم.

ثم خص القرآن اليهود بهذا الوصف: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ وقد كرر هذا الوصف في حقهم تأكيداً لما قبله، فاليهود كثيرو سماع الكذب من أحبارهم ورؤسائهم الذين يلقون إليهم الأكاذيب التي افتروها ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أكالون صيغة مبالغة من الأكل أي كثيرو الأكل، والسحت: هو المال الذي يُكتسب من وجه حرام كالربا والرشوة.

والسحت في اللغة أصله الهلاك والشدة، وسمي المال الحرام سُحتاً لأنه يَسحت الطاعات أي يذهبها ويستأصلها، وقيل: سمي الحرام سُحتاً لأنه يسحت مروءة الإنسان وفضائله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رشوة الحاكم من السحت. وقيل من السحت أن يأكل الرجل بجاهه وذلك أن يكون له جاه عند السلطان فيسأله إنسان حاجة فلا يقضيها إلا برشوة يأخذها. وقال أبو حنيفة: إذا ارتشى الحاكم انعزل في الوقت وبطل كل حُكْمٍ حَكَمَ به بعد ذلك ـ فاليهود كثيرو الأكل للمال الحرام كالربا والرشوة في الحكم والشهادة وأخذ الأجور في الشفاعات.

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ظاهر هذا النص أن النبي ﷺ مخير في أن يحكم بين أهل الكتاب أو أن يعرض عنهم، وقال بعض الصحابة والتابعين: إن هذا الحكم منسوخ بقوله تعالى: **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾** [المائدة: ٤٩].

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: **﴿فَإِن جَاؤوكَ فَاحْكُم بينَهُم أو أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾** قبل أن تعقد لهم الذمة ويدخلوا تحت أحكام الإسلام بالجزية، فلما أمر الله بأخذ الجزية منهم وجرت عليهم أحكام الإسلام أُمر بالحكم بينهم بما أنزل الله فيكون حكم الآيتين جميعاً ثابتاً: التخيير في أهل العهد الذين لا ذمة لهم ولم يجر عليهم أحكام المسلمين كأهل الحرب إذا هادنّاهم، وإيجاب الحكم بما أنزل الله في أهل الذمة الذين تجري عليهم أحكام الإسلام. ولهذا قال الشافعية: «إن أهل الذمة إذا تحاكموا إلينا وجب على الحاكم المسلم أن يحكم

بينهم بما أنزل الله، وأما المعاهدون فلا يجب عليه ذلك إن تحاكموا إلينا، بل هو مخير بين الحكم بينهم وبين الإعراض عنهم»[١].

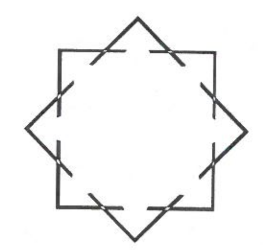
﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُم فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيئاً﴾ وإن تُعرض ـ أيها النبي ـ عن الحكم بينهم فلن يقدروا على الإضرار بك، فأولئك الذين أرادوا من النبي ﷺ أن يصدر الحكم تبعاً لهواهم لا للحق في ذاته شعروا بخيبة أمل عندما حكم النبي خلاف ما يأكلون، فأضمروا السوء للنبي وأثاروا الإشاعات الباطلة في حقه، ولكن الله طمأنه بأنه حاميه وأنهم لا يستطيعون إلحاق الضرر به **﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِالقِسْطِ﴾** وإن اخترت الحكم بينهم يا محمد فاحكم بينهم بالعدل، فالعدل هو شعار الحكم في الإسلام حتى مع اليهود الذين يضمرون السوء للنبي ﷺ **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾** أكد القرآن على مراعاة العدل في الحكم بـ(إن) المؤكدة، وبيان أن محبة الله لا تكون إلا للعادلين، فتأمل حرص الإسلام على إقامة العدل حتى مع الخصم.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ الاستفهام هنا للتعجب ولإنكار حالهم. فاليهود يتحاكمون إلى النبي ﷺ في شأن الزاني المحصن مع أن الحكم عندهم في التوراة صريح لا مجال للريب فيه، فلماذا يعدلون عن تنفيذ ما عندهم من الحكم في شأن الزاني والزانية إلى الطلب من النبي ﷺ أن يحكم بينهم؟ إنهم يريدون المخرج وتخفيف عقوبة الرجم بعقوبة أخف ويجعلون من حكم النبي

(١) وهذا الحكم يسري على الأجانب الذين هم في بلاد الإسلام.

ﷺ حجة لهم في ذلك، ولكن النبي ﷺ حَكَمَ برجم الزانيين المحصنين كما جاء في التوراة. وفي قوله تعالى: **﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾** ليس معناه تصديقاً للتوراة بمجملها، بل بتلك الجزئية الخاصة برجم الزاني، لأن القرآن حكم على اليهود بأنهم نسوا نصيباً مما وُعظوا به، وحرَّفوا كلام الله عن مواضعه، ولا شك أن التحريف لم يتناول التوراة كلها، بل لا يزال فيها بعض الأحكام التي أُنزلت على موسى **﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾** أي ثم يعرض اليهود عن الحق من بعد حكمك به وهو الموافق لما في التوراة **﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾** وما أولئك اليهود بالمؤمنين بما في التوراة لإعراضهم عن اتباعها، وعن اتباع حكمك يا محمد.

وفي الآية دليل على أن التولي عن حكم الله يخرج صاحبه من حظيرة الإيمان.



﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

شرح المفردات

هادوا: أي اليهود.

الربانيون: هم العلماء الراسخون في علوم الدين وهم علماء النصارى.

الأحبار: هم علماء اليهود.

استحفظوا: استودعوا وائتمنوا عليه.

شهداء: رقباء يحمونه من التغيير والتبديل.

قِصاص: القِصاص هو عقاب الجاني بمثل ما جنى.

تصدّق به: عفا عن الجاني.

كفارة له: محو لذنوبه وعَفْوٌ عنها.

الدعوة إلى الحكم بما شرعه الله

وبعد أن وصف القرآن سابقاً بأن التوراة فيها حكم الله، استأنف الثناء عليها وعلى الأنبياء الذين حكموا بموجبها وساروا على هديها قبل أن يطرأ التغيير عليها:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنورٌ﴾ وصف الله التوراة بأنه أنزلها وحياً من عنده، وأنها اشتملت على الأحكام التي تهدي الناس إلى سبيل الله، وأنها نور لما تشتمل عليه من المواعظ والأخلاق الكريمة **﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾** أي يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهم السلام، ووصف الله هؤلاء الأنبياء بقوله **﴿الذين أسْلموا﴾** أي الذين انقادوا وخضعوا لأوامر الله الوارادة في التوراة. وقد يكون المراد بقوله **﴿الذين أسلموا﴾** ردًّا على اليهود والنصارى لأن بعضهم كانوا يقولون: الأنبياء كلهم يهود أو نصارى، فبيّن الله أن الأنبياء كانوا مسلمين بمعنى الخضوع لله والانقياد لتكاليفه بهذه الصفة لا بصفة أخرى **﴿لِلّذين هَادُوا﴾** أي يحكم بالتوراة النبيون لليهود خاصة وذلك بإجراء أحكامها عليهم **﴿والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ﴾** والربانيون هم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس والقيام بمصالحهم. والأحبار هم فقهاء اليهود وعلماؤهم، أي ويحكم بكتاب الله الربانيون والأحبار بما استودعوا من علمه. وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه على وجهين: أحدهما، أن يحفظوه في صدورهم فلا ينسوه، وأن يحافظوا عليه من التغيير والتبديل. والثاني، ألاّ يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه **﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾** وكان هؤلاء النبيون وعلماء التوراة شهداء بأن كل ما

فيها حق وصدق، أو رقباء يحمونها من أن يطرأ عليها التغيير والتبديل. وقد سئل أحد العلماء: لِمَ جاز التبديل والتغيير على أهل التوراة، ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة **﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾** فوكل الحفظ إليهم ولكنهم ضيعوا ما طلب منهم بينما قال الله سبحانه في شأن القرآن **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [الحجر: ٩] فتعهد الله بحفظ القرآن فلم يجرِ عليه التحريف والتبديل.

﴿فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ والخشية: هي خوف يشوبه تعظيم. هنا خطاب لِرُؤساء اليهود وعلمائهم، وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهي بطريق الدلالة دون العبارة.

والمعنى: لا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي الذي حكمت به على عبادي فإنهم لا يقدرون أن يلحقوا بكم ضراً ولا نفعاً إلا بإذني، ولكن اخشوني فقط دون سائر خلقي فإن النفع والضُرَّ بيدي **﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾** والاشتراء معناه: الاستبدال، أي لا تستبدلوا بأحكام آياتي التي اشتملت عليها التوراة أحكاماً أخرى تخالفها، إرضاء للحكام أو رشوة من الأغنياء مقابل ثمن قليل من شهوات الدنيا كَمَالٍ تحصلون عليه أو جاهٍ تصلون إليه **﴿وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾** ظاهر هذا الحكم هو العموم فيشمل هذه الأمة ـ أي أمة الإسلام ـ وغيرها من الملل التي كانت قبلها وإن كان الظاهر أنه في سياق خطاب اليهود. وقال الحسن: نزلت هذه الآية في اليهود وهي علينا واجبة. فالآية متناولة كل من لا يحكم بما أنزل الله ولكنه في أُمَراء أُمّة الإسلام كفر معصية لا يخرجهم عن الإيمان. ويقول ابن

عباس: من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر، ومن أَقَرّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق. ويقول الزمخشري في تفسيره: «من لم يحكم بما أنزل الله مُستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون».

أما الذي لا يحكم بحكم الله مع إقراره واعترافه به فإنه لا يصل في عصيانه وفسقه إلى درجة الكفر، بل هو كفر دون كفر، أي أن كفر المسلم ليس مثل كفر الكافر.

ثم بين الله ما اشتملت عليه التوراة من بعض الأحكام التي فرضها الله على اليهود ولم يأخذوا بها، حيث كانوا يفرقون بين القوي والضعيف في القِصاص، قال تعالى: **﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾** أي وفرضنا على اليهود في التوراة أن النفس الجانية تقتل مقابل النفس المقتولة، فلا تفاضل بين نفس الغني ونفس الفقير، ولا بين نفس الأمير ونفس الوضيع **﴿والعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾** أي وأن عين الجاني تفقأ مقابل عين الغير التي فقأها **﴿وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ﴾** وأن أنف الجاني يقطع بالأنف الذي قطعه **﴿والأُذُنَ بِالأُذُنِ﴾** وأن أذن الجاني تقطع مقابل الأُذن التي قطعها **﴿والسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾** وأن سن الجاني تقلع مقابل السن التي قلعها بالعدوان عليه **﴿والجُروحَ قِصَاصٌ﴾** القِصاص: المماثلة، أي عقوبة الجاني بجراح المجني عليه أن يُجرح مثل الجرح الذي جنى به إذا أمكن ذلك، وفي الموضع الذي كان فيه الجرح. ولا شك أن القصاص هو الأردع للجناة، فإن من يعرف أنه إن شج رأس سواه عوقب بشج رأسه لا يقدم على أذى غيره بل يتردد، وكلما كانت العقوبة من جنس الجريمة كانت أشد زجراً وتأثيراً.

وكل ما ذكرناه من الجنايات المقصود منه ما كان عن عمد، أما ما

كان عن خطأ فلم تتعرض له الآية، ولكن فيها دفع الدية للمجنى عليه.

وفائدة الإعلام بما شرع الله لبني إسرائيل في القِصاص توبيخهم لمخالفتهم أحكام دينهم وذلك أن اليهود في المدينة المنورة كانت بينهم نزاعات وحروب وبالأخص بين بني النضير وبني قريظة، فاشترط بنو النضير على بني قريظة أن دية النضيري هي ضعف دية القرظي، وعلى أن القرظي يقتل بالنضيري، ولا يُقتل النضيري بالقرظي الذي قتله.

ثم تعقب الآية على هذه الأحكام: **﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾** أي إذا عفا المجني عليه عن الجاني ولم يطلب من الحاكم القصاص منه **﴿فَهُوَ كَفَّارةٌ لَهُ﴾** فهو سبب في تغطية ذنوبه والعفو عنها، كما أنه مُذهب للعقاب في الآخرة، وقد سمى الله العفو عن الجاني صدقةً لأنه كالعطية له، ولا شك أن العفو في هذا المجال فيه تأليف للقلوب وإزالة للبغضاء من النفوس.

ونلفت النظر إلى أن العفو عن الجاني لا يسقط حق المجتمع، فللقاضي أن يحكم بتعزيره إذا عفا المجني عليه عن الجاني، والتعزير هو عقوبة غير محددة يحكم بها القاضي على الجاني حسب الظروف التي اقترف بها الجرم.

يقول ابن كثير: «استدل كثير ممن ذهب مِنَ الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكي مقرراً ولم ينسخ.. والحكم عندنا على وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة»[1]. وقال الحسن البصري: هي عليهم وعلى الناس عامة.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

ويختم الله آية القصاص بقوله: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** أي أن الحكام الذين لا يُطَبِّقون هذه الأحكام يكونون موصوفين بالظلم لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله الذي فيه العدالة والرحمة للخلق، والظلم يطلق على الكفر فيكون هذا مؤكداً لما جاء في الآية السابقة **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾**.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

شرح المفردات

وقفّينا على آثارهم بعيسى: أي جعلناه يقفو آثار النبيين ويتّبعهم.

الفاسقون: الخارجون عن طاعة الله.

الإنجيل فيه هدى ونور

وبعد أن بيّن الله صفات اليهود أتبع ذلك بالحديث عن عيسى عليه السلام وعن الإنجيل الذي أنزله عليه، قال تعالى:

﴿وقَفَّيْنَا عَلَى آثارهم بِعيسَى ابنِ مَرْيَمَ﴾ أي وأرسلنا من بعد الذين حكموا بالتوراة من النبيين كموسى وداود وسليمان وغيرهم بعيسى ابن مريم مقتفياً آثارهم. وفي ذكر عيسى مقروناً بكلمة ابن مريم إشارة إلى أنه مُحْدَثٌ ككل المحدَثات وأنه مخلوق بعد أن لم يكن وأن نسبه يعود لأمّه مريم فليس له أب، وأنه ليس ابن الله كما يقول النصارى **﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾** أي مؤيداً للتوراة التي أنزلها سبحانه على موسى عليه السلام، غير مخالف لما فيها، وكان العمل بها واجباً ما لم ينسخه الإنجيل من أحكامها **﴿وَآتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ﴾** وأنزل الله على عيسى كتاباً اسمه الإنجيل وهو في نظر المسلمين غير الأناجيل الأربعة التي تروي سيرة حياته وجملة من أقواله، لأن الله صرّح أنه أنزل على رسوله عيسى إنجيلاً بصيغة المفرد، كما أن أوصاف الإنجيل التي ذكرها القرآن لا تتطابق كلياً مع الأناجيل الموجودة في هذا الزمن إذ أنكر ما فيها من إثبات الألوهية لعيسى عليه السلام **﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾** والإنجيل اشتمل على الهدى، وما جهله الناس من حكم الله في زمن عيسى، كما أن في الإنجيل نوراً يستضاء به لتمييز الحق من الباطل **﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾** كما أن الإنجيل مُصدّق لما كان قبله من التوراة.

ويلاحظ أن تكرار جملة **﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾** جاء لمعنيين مختلفين، الأول: أن المسيح يصدّق بالتوراة، والثاني: أن الإنجيل مصدّق بالتوراة، وتلاقي التصديقين يفيد إقرار أكثر أحكام التوراة، فالإنجيل قد جاء بشريعة متممة لما جاء في التوراة من غير نقض لها **﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾** كما جعل الله الإنجيل هدىً

يُهتدى به وموعظة لمن اتقى الله بطاعته وترك ما نهاه عنه، والمتقون هم الذين يستفيدون من إرشادات الإنجيل دون ما سواهم.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أمر الله النصارى أن ينفّذوا الأحكام الواردة في الإنجيل، وأهل الإنجيل هُمُ الّذين آمنوا بالمسيح وكتابه الذي أنزله الله عليه فالعمل واجب بشريعة الإنجيل قبل البعثة المحمدية، فلما جاء محمد ﷺ بشريعة الإسلام صار العمل بها هو المطلوب لأن شريعة الإسلام تنسخ ما قبلها من الشرائع وهي الشريعة المقبولة عند الله، وقد جاء في القرآن ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن جملة الحكم بما أنزل الله في الإنجيل أن يؤمنوا بنبوة محمد ورسالته ويتبعوا شريعته، لأن الإنجيل معناه البشارة، وقد بشر الإنجيل بمجيء محمد ﷺ رسولاً من الله بعد المسيح عليه السلام فإذا آمن النصارى برسالة محمد واتبعوه يكونون قد حكموا بما أنزل الله في الإنجيل **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾** أي ومن لم يحكم بما أنزل الله في الإنجيل ولم يتبّع ما ورد فيه من البشارة بمجيء الرسول محمد ﷺ بعد عيسى عليه السلام فقد خالَفَ أوامر الله فاستحقّ أن يكون من الفاسقين أي الخارجين عن طاعة الله وهديه.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾

شرح المفردات

وأنزلنا إليك الكتاب: وأنزلنا إليك يا محمد القرآن.

مصدّقاً لِمَا بين يديه مِن الكتابِ: مصدقاً لما تقدّمه من الكتب السماوية.

مهيمناً عليه: مسيطراً ورقيباً على ما سبقه من الكتب السماوية.

شِرْعةً ومنهاجاً: شريعة وطريقاً واضحاً في الدين.

ليبلوكم: ليختبركم.

فاستبقوا الخيرات: فسارعوا إليها وليسبق كل منكم غيره إلى فعلها.

أن يفتنوك: أن يصرفوك ويصدوك عما أوحي إليك.

فإن تولوا: فإن أعرضوا.

الجاهلية: العصر الذي سبق الإسلام.

يوقنون: يؤمنون إيماناً راسخاً.

القرآن مهيمنٌ على الكتب السماوية

وبعد أن أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزله على عيسى عليه السلام، ودعا إلى اتباعهما، جاء الكلام عن القرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ والعلاقة التي تربطه بتلك الكتب السماوية:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ[1] بِالْحَقِّ﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد القرآن قائماً بالحق **﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ[2]﴾** مُصَدِّقاً لما تقدّمه من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله قبل تحريفها، ومؤيداً ما اشتملت عليه من الدعوة إلى طاعة الله والعمل الصالح. وفي هذا إشعار بوحدة الرسالات الإلهية وأن محمداً ليس بدعاً من الرسل، بل هو متمم لما جاء به رسل الله وهو خاتمهم **﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾** أي مسيطراً ورقيباً على سائر الكتب السماوية السابقة، يشهد بما فيها من الحقائق، ويبين ما صنعه المحرفون فيها من تغيير وتبديل وزيادة ونقصان، فيقر حقائقها ويبيّن أباطيلها **﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾** فاحكم يا محمد بين أهل الكتاب بموجب الحق الذي أنزله عليك من القرآن الكريم **﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾** أي ولا تتبع في حكمك شهواتهم ورغباتهم فتنحرف عما جاءك من عند الله من الحق، والضمير في قوله تعالى **﴿أَهْوَاءَهُم﴾** يعود إلى اليهود الذين

(١) الكتاب: (أل) الداخلة على الكتاب هي للعهد أي الكتاب المعهود المعروف وهو القرآن.

(٢) الكتاب: (أل) هنا الداخلة على الكتاب هي للجنس أي جنس الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبل محمد ﷺ.

تحاكموا إلى النبي ﷺ وأرادوا أن يحكموا بما لم ينزل من عند الله في قضية الرجم للزانيين، مع أن الحكم عندهم في التوراة التي بأيديهم منصوص عليه ولم ينسخه القرآن **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾** الخطاب هنا لليهود والنصارى والمسلمين ممن نزل عليهم شريعة من عند الله. والشِّرعة: المراد بها الشريعة، وهي ما أنزله الله من أحكام تكليفية على رُسله يجب العمل بها. والمنهاج: هو الطريق الواضح لتنفيذها وإقامة أحكامها. والمعنى: جعل الله لكل أمة منكم أيها المسلمون واليهود والنصارى شريعة تُنَاسِبُ أحوالكم.

وهنا يرد سؤال: بما أن الرسالة الإلَهية واحدة فكيف حصل اختلاف الشرائع؟ الجواب على ذلك: أن الوحدة التي تجمع بين الرسالات الإلَهية هي ما يتعلق بالعقيدة، من إيمان بوحدانية الله والإخلاص له وعبادته وحده، والإيمان باليوم الآخر وما يجري فيه من حساب وثواب وعقاب. أما الشريعة التي خص الله بها كل نبي فهي تختلف من نبي إلى آخر من تحليل وتحريم، أو تكون مؤيدة لما قبلها وناسخة لبعض أحكامها، هذا مع العلم أن الشرائع وطرق تطهير النفس من الآثام تختلف من أمة إلى أخرى فقد يشدّد الله في الأحكام على بعض الأقوام بسبب قلوبهم القاسية، ويخفف الأحكام عن قوم آخرين لطيب عنصرهم **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** أي لو شاء الله تعالى أن يجعلكم أيها الناس أمة واحدة ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد لفعل ذلك بأن يخلقكم على استعداد واحد وطبيعة واحدة **﴿وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾** ولكن مشيئة الله أرادت أن تجعلكم أمماً متعددة ليختبركم الله فيما آتاكم من الشرائع، ومدى امتثالكم لأحكامها، وليتبيّن المحسن

منكم من المسيء ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ أي فليسبق كل منكم إلى الخيرات، وتنافسوا في تحصيلها للتقرب إلى ربكم ونيل رضاه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ فإن مصيركم جميعاً بعد مماتكم إلى الله وحده ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم الله يوم القيامة بما كنتم تختلفون فيه في الدنيا من أمور الدين، ويجزيكم على ما فعلتموه من خير أو شر.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي فاحكم يا محمد بين اليهود بحكم الله الذي أنزله إليك في القرآن، ولا تتّبع رغباتهم وأهواءهم في الحكم بينهم بغير شريعة الله. هذا النص القرآني وما بعده روي في أسباب نزوله أن بعض أحبار اليهود تحدثوا فيما بينهم قائلين: اذهبوا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وإننا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم فنؤمن لك ونصدقك... فأبى رسول الله أن يفعل ما طلبوا فأنزل الله الآية ﴿وأنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ...﴾ إلى قوله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَاحْذَرْهُمْ أن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاءوا محتكمين إليك أن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من أحكام كتابه ـ أي القرآن ـ فيحملوك على ترك العمل به ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي فإن أعرض هؤلاء اليهود عن حكمك يا محمد بعد تحاكمهم إليك فتركوا العمل بما حكمت به، فاعلم أنّما يريد الله أن

يتعجّل في عقوبتهم في الدنيا ببعض ما قد سلف من ذنوبهم.

ومن هذا العقاب الإلّهي ما حصل ليهود بني النضير حيث أجلاهم رسول الله عن ديارهم حين علم أنهم يدبرون أمراً للكيد به، وحكم رسول الله بالموت على يهود بني قريظة بسبب خيانتهم له وانضمامهم إلى أعدائه في معركة الأحزاب. فالآية فيها تهديد ووعيد للذين يعرضون عن الأحكام التي جاء بها القرآن، وأن ذلك من الذنوب التي يعاقب الله عليها في الدنيا قبل الآخرة، لأن الأمة التي لا تخضع لأحكام شرع الله وتنقاد إلى لذائذها وشهواتها وأهوائها الباطلة لا بد أن يصيبها عقاب الله على ما اقترفت من آثام، ثم ختم الله الآية بقوله ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ وإن كثيراً من اليهود لتاركوا العمل بكتاب الله وخارجون عن طاعته إلى معصيته.

﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، أي أفحكم الجاهلية يطلب هؤلاء اليهود[1]؟ والجاهلية: هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه والجهل بشرائع الدين والكِبْر والتجبّر وتسلط الأقوياء على الضعفاء.

فالقرآن ينكر على اليهود الذين يريدون بأن يحكموا بأحكام الجاهلية التي تقوم على الظلم ولا تستند إلى حق أو عدالة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ

(١) روي أن بني النضير لمّا تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في خصومة قتيل وقعت بينهم وبين قريظة طلب بعضهم من رسول الله أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل فقال النبي: (القتلى سواء) أي متساوون. فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بحكمك. وكان بنو النضير يأخذون في الديات ضعف ما يجب لبني قريظة.

اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي لا أحد أحسن حُكماً من حكم الله لقوم يوقنون بدينه ويذعنون للحق الذي جاء به، إنهم هم الذين يدركون حُسْنَ أحكام الله وعدالتها لأنها تُسَوّي بين الناس كافة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

شرح المفردات

أولياء: نصراء وأصدقاء.

في قلوبهم مرض: أي نفاق.

تصيبنا دائرة: يدور علينا الدهر بنوائبه.

بالفتح: أي بالنصر لرسول الله محمد ﷺ.

ما أسرّوا: ما أخفوا.

جهد أيمانهم: مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها.

حبطت أعمالهم: بطلت وضاعت أعمالهم سدى فلا ثواب لهم.

موقف الإسلام من أهل الكتاب

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه المؤمنين إلى الاحتراز من اليهود والنصارى الذين كان الكثير منهم أعداء للإسلام في زمن بعثة النبي ﷺ:

﴿يَاأَيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ فالله سبحانه يأمر المؤمنين بأن لا يتخذوا اليهود والنَّصارى حلفاء ونصراء بعدما ظهرت عداوتهم لله ورسوله وللمؤمنين.

وفي أسباب نزول الآية أنه لما كانت غزوة أُحد اشتد الخوف لدى طائفة من المسلمين وتخوفوا من أن يتغلب الكفار عليهم، فقال رجل لصاحبه: أما أنا فألحق بفلان اليهودي فآخذ منه أماناً وأتهوّد معه، وقال الآخر: أما أنا فألحق بفلان النصراني ببعض أرض الشام فآخذ منه أماناً وأتنصّر معه.

وقيل: المقصود بذلك عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبيّ بن سلول حيث تبرأ عبادة بن الصامت من حلف اليهود بينما تمسك عبد الله بن أبيّ رئيس المنافقين بحلف اليهود.

ويتابع القرآن قوله: **﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾** أي أن اليهود بعضهم أنصار بعض على المؤمنين ويد واحدة عليهم، وأن النصارى كذلك بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُم فَإِنَّهُ مِنْهُم﴾** أي ومن يتولّ اليهود والنصارى ويستنصر بهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملّتهم فإنه لا يتولى أحد غيره إلا وهو راضٍ عنه وعن دينه **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** إن الله لا يوفق من وضع

الولاية في غير موضعها فاستنصر باليهود والنصارى مع علمه بعداوتهم لله ولرسوله.

فالنهي عن الولاية لهم كانت من أجل العداوة التي كانوا يضمرونها للإسلام والمسلمين لا لأجل الاختلاف في الدين لذاته، فإن النبي ﷺ لما وصل إلى المدينة المنورة كتب كتاباً آخى فيه بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وأن بينهم النصر على من حاربهم، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم، وأن النصر للمظلوم، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. ولم يتصد النبي ﷺ لحربهم إلا بعد أن غدروا به وانضموا إلى أعدائه.

هذا وإن الإسلام يتعايش مع اليهود والنصارى ويأمر أهله بأن يفعلوا الخير لهم، ويعاملوهم بالعدل والإنصاف إذا لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم، كما جاء في الآية الكريمة التالية التي تحدد سلوك المؤمنين بالنسبة لغيرهم من الملل ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

كما أن الإسلام أباح الأكل من ذبائح اليهود والنصارى إذا كانت من حيوانات مباح أكلها، والتزوج من نسائهم، والمؤاكلة والمصاهرة تدعو إلى التقارب وحسن المعاشرة والمودة.

وعلى هذا التوجيه الرباني فالذين يعيشون من أهل الديانات مع المسلمين في وطن واحد لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من أمور الدنيا، يتناصرون فيما بينهم على أعدائهم ويتوادون، ولا يشهرون

العداوة والبغضاء في وجوههم.

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى متابعة الآية السابقة:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ وصف الله المنافقين بمرضى القلوب، والقلوب تصاب بالأمراض النفسية كما تُصاب بالأمراض الجسدية، وأمراض القلوب النفسية هي الكذب والغدر والخيانة وغيرها من الصفات الذميمة. فهؤلاء المنافقون يسارعون في مودة اليهود ونصارى نجران لأنهم كانوا أهل ثروة وكانوا يعينونهم بالرغم من عدائهم للمسلمين **﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾** والدائرة: هي الهزيمة والسوء ومكاره الدهر، أي يقول هؤلاء المنافقون نخشى أن يظفر الكفار بمحمد فيحل بنا ما يحل بالمؤمنين من الاضطهاد، ذلك بأنهم كانوا غير موقنين بوعد الله بنصرة رسوله، لأنهم كانوا في شك من أمر نبوته، لهذا اتخذوا لهم يداً عند أعداء الإسلام ليكونوا في مأمن إذا أصاب الإسلام سوء، وهذا هو شأن المنافقين في كل زمان ومكان، فهم الطابور الخامس الذي يطعن الأمة في ظهرها **﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾** هذا رد على المنافقين فيما وقع في قلوبهم من الخشية للأعداء، وعسى: لفظ يدل على الرجاء في الحصول على مرغوب وإذا صدر لفظ (عسى) من الله كان متحقق الوقوع لأن الكريم إذا أطمع في خير فعله، فما بالك بأكرم الأكرمين. والفتح: من معانيه الفصل بين الحق والباطل، وكذا الظفر والنصر على الأعداء، فالله وعد المؤمنين بالنصر وهو سبحانه سينجز وعده **﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾** وهذا الأمر هو بنصر المسلمين وتبدّل حالهم من الضيق إلى السعة في العيش بعد الاستيلاء على أموال أعدائهم وممتلكاتهم

﴿**فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ أي فيصبح هؤلاء المنافقون بعد أن يجيء نصر الله للمسلمين نادمين على ما حدّثوا به أنفسهم وكتموه في صدورهم من الكفر، ونادمين أيضاً بسبب مودتهم لليهود وغشهم للإسلام وأهله.

﴿**وَيَقُولُ الَّذِين آمنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِين أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم إِنَّهُم لَمَعَكُمْ**﴾ أي يقول المؤمنون لليهود مشيرين إلى المنافقين بعد أن أصيب اليهود بالهزيمة: أهؤلاء الذين أقسموا بأغلظ الأيمان أنهم يعينونكم على محمد إذا قاتلتموه؟ كما حكى القرآن عنهم ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١] ولكن بعد وعدهم هذا خذلوهم. ويحتمل أن يكون المعنى: أي يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى المنافقين: أهؤلاء الذين كانوا يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم مؤمنون فقد هتك الله سترهم وفضحهم بعد هزيمة اليهود ﴿**حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ**﴾ أي بطلت أعمال المنافقين التي عملوها في الدنيا فلا ثواب لها ولا أجر لهم عليها، فأصبح هؤلاء المنافقون عند مجيء أمر الله بنصر المؤمنين على أهل الكفر في خسران بسبب افتضاحهم، وبحصول العذاب لهم في الآخرة لأجل نفاقهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾

شرح المفردات

يرتد منكم عن دينه: يرجع ويعود إلى الكفر بعد الإيمان.

أذلة على المؤمنين: رحماء متواضعين.

لومة لائم: اعتراض معترض وتوبيخه.

واسع: كثير الفضل والجود.

وليّكم: ناصركم والجدير بالولاء له.

ومن يتولّ: أي يجعل له وليًّا وناصراً.

هُزواً: سخرية.

لعباً: تناولهم للأمور في عبث وعدم اهتمام.

مغبّة الارتداد عن الإسلام

ثم إن اتخاذ المؤمنين لليهود والنصارى أولياء قد يؤدي بضعفاء الإيمان إلى الارتداد عن دينهم، لهذا يبيّن الله في الآية التالية بأن دينه لن يناله ضرر منهم وأنه سيكون لدين الإسلام أتباع وأنصار يبذلون دماءهم في سبيل نصرته، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُم عَنْ دِينِهِ﴾ أي ياأيها الذين آمنوا من يرجع منكم عن دينه الحق ـ دين الإسلام ـ الذي هو عليه فيبدّله ويغيّره بدخوله في الكفر **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ﴾** أي وفي حال خروجكم عن دينكم فلن تضروا الله شيئاً وسيأتي الله بقوم من صفاتهم أن الله يحبّهم وهم يحبونه. قيل إن هؤلاء القوم هم أبو بكر وأصحابه حيث قاتلوا المرتدّين عن دفع الزكاة بعد وفاة رسول الله، وقيل: هم أهل اليمن قوم أبي موسى الأشعري، وقيل: هم الأنصار، وقيل: المراد بهؤلاء الأقوام الذين يحبهم الله من سيدخلون في الإسلام من سائر الأمم ويكون لهم شأن عظيم في خدمة الإسلام وتوسيع مملكته بالفتوح ونشر هديه بين البشر وهذا ما حصل فعلاً.

وهؤلاء القوم من صفاتهم أن الله يحبهم وهم يحبونه، وأن محبة الله تعالى للمؤمنين هي أعلى ما يصل إليه طموحهم لأنها علامة رضا الله عنهم، وينتج عن رضا الله لهم توفيقهم لطاعته، وتيسير الخير لهم، وإسباغ البركات عليهم.

أما محبة المؤمنين لله فهي أعلى درجات الإيمان، ومن علاماتها الطاعة المطلقة لله ولرسوله، فلا يكون محباً لله من يعصيه، فطاعة الله ورسوله ملازمة للمحبة، كما أن محبة الله تستوجب طاعته، ولهذا أمر

الله رسوله محمداً بأن يخاطب قومه: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران: ٣١].

ومن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم **﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾** والمراد بالذلّ هنا: الحنوّ والعطف والتواضع ولين الجانب، أي يعاملون إخوانهم في الدين متحلين بتلك الصفات الكريمة، وفي الوقت نفسه هم أشدّاء على الكفار ينظرون إليهم نظرة العزيز الغالب، وهذا ما وصف القرآن به المؤمنين في موضع آخر منه **﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾** [الفتح: ٢٩].

وقفة عند قوله تعالى: **﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾** فإذا كان المؤمنون يسيرون على هذا النهج بالنسبة لإخوانهم في الدين فلا ريب أن تنشأ بينهم رابطة الود والتضحية والوحدة، وما تفرق المسلمون وطمع فيهم أعداؤهم إلا بعد أن فقدوا هذه الرابطة الخُلُقية التي تجمعهم.

﴿يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والجهاد بذل ما في الوسع والطاقة والصبر على الشدة، وسبيل الله: طريق الحق والخير الموصلة إلى مرضاة الله. وقد يكون الجهاد ببذل النفس والمال في قتال أعداء الحق والدفاع عن الأوطان من اعتداء الأعداء، وقد يكون الجهاد بنشر دعوة الإسلام وبيان حقائقه والرد على خصومه **﴿ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾** أي لا يخشون ملامةً من أي لائم لِقُوّة إيمانهم لأنهم لا يعملون العمل رغبة في ثناء الناس ولا خوفاً من مكروه يصيبهم. وقد دعا رسول الله ﷺ إلى الجهر بكلمة الحق بدون خوف ولا وجل فقال: «أفضل الجهاد كلمة عَدْلٍ عند سلطان جائر»[1].

(١) أخرجه أبو داود.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ما تقدم من الفضائل الجليلة من محبة الله لهم ومحبتهم لله تعالى وتضحيتهم للمؤمنين وشدتهم على الكفار، والجهاد في سبيل الله دون خشية أحد، إنما هو عطية من الله يتفضّل بِهَا سبحانه على من يشاء من عباده ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سبحانه واسع الفضل والجود والرحمة يَسَعُ الناس جميعاً برحمته وفضله، محيط علمه بكل شيء.

معجزة للقرآن: وفي الآية التي مرت معنا إشارة إلى ما سيكون من أمور مغيبة في المستقبل من ارتداد بعض العرب عن الإسلام، وهذا ما تحقق فعلاً مما يسجل معجزة للقرآن ودليلاً على صدق نبوة محمد ﷺ ففي أواخر عهد رسول الله ﷺ ارتدّت ثلاث قبائل وهم: بنو مدلج، وبنو حنيفة، وبنو أسد. وفي خلافة أبي بكر الصديق ارتدّ بعض القبائل عن الإسلام، وبعضها امتنع عن دفع الزكاة فقاتلهم أبو بكر الصديق وانتصر عليهم.

ثم بيّن القرآن للمؤمنين من هم الجديرون بطلب النصرة منهم:

﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قصرت النصرة على هؤلاء بأداة القصر ﴿إنما﴾ التي تفيد الحصر، أي ليس لكم أيها المؤمنون ناصر إلا الله ورسوله والمؤمنون.

ومن صفات المؤمنين الذين يجب أن نتولاهم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يؤدون الصلاة كاملة لتؤدي غايتها من تربية الوجدان النفسي والنهي عن الفحشاء والمنكر، ويعطون الزكاة

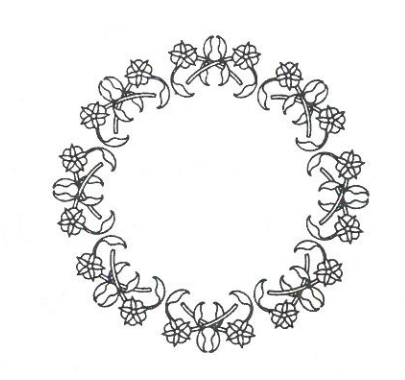
لمستحقيها عن طيب نفس ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ والركوع هو الانحناء فتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة، وتارة في التواضع والتذلل إما في العبادة وإما في غيرها وهو المقصود هنا، أي يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم متواضعون دون تكبر.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ومن يجعل نصرته من الله ورسوله ومن المؤمنين ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾ والحزب معناه: الجمع من الناس الذين يجتمعون على رأي واحد من أجل أمر أهمهم وشغلهم، فهؤلاء المؤمنون الذين يتولون الله ورسوله وينصر بعضهم بعضاً هم حزب الله، وصفهم الله بذلك تنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم، وحزب الله هو حزب الخير وسيكون هو الغالب إن شاء الله وهذا ما تحقق فعلاً.

﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً﴾ نادى الله أتباع محمد بصفة الإيمان الذي هو مناط رفعتهم وجامع وحدتهم بأن لا يتخذوا أعداء الإسلام الذين يستخفّون بدينهم ويهزأون به ويجعلونه موضع لعب وعبث وهؤلاء هم: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالكُفّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، والمراد بهم هنا اليهود الذين كانوا جيراناً للمؤمنين في المدينة المنورة، والكفار: هم المشركون وعبدة الأصنام من العرب، فقد نهى الله أن يتخذ المؤمنون هؤلاء نصراء لهم، وكيف يكونون نصراء للمؤمنين يريدون العزة لهم مع أنهم يستهزئون بدينهم الذي هو مصدر قوّتهم ونهضتهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُم مُؤمِنينَ﴾ وخافوا الله ـ أيها

المؤمنون ـ واجتنبوا معصيته لأن اتخاذكم نصراء لكم وهم يسخرون بدينكم ينافي تقوى الله والمؤمن الصادق يحافظ على كرامة دينه ويجتنب مهانته.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ والنداء: الدعاء برفع الصوت، أي وإذا أذّن المؤذن منكم ـ أيها المؤمنون ـ لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة ووجوب الإقبال على أدائها **﴿اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾** جعلوا ذلك من الأمور التي يهزأون بها واللعب بتقليده تهكماً وازدراء من أهلها **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾** أي أنهم لا يفكرون في الأمور تفكير العقلاء فلو كان عندهم عقل لخشعت قلوبهم عند صوت الأذان لما فيه من تكبير لله ودعوة إلى الصلاة التي فيها الفوز والفلاح.



﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾

شرح المفردات

تنقمون: تكرهون وتعيبون.

فاسقون: خارجون عن طاعة الله.

مثوبة: المثوبة والثواب الجزاء على الأعمال خيرها وشرها.

الطاغوت: هو كل معبود من دون الله، أو هو الشيطان.

سواء السبيل: الطريق السوي المستقيم والدين الحق.

العدوان: الظلم.

السحت: المال الذي يكتسب من وجه حرام.

لولا: بمعنى هلاّ، وهي للحض على الفعل.

الربانيون: جمع رباني وهو العالم الراسخ في علوم الدين.

الأحبار: جمع حبر وهو العالم الفقيه عند اليهود الذي يعرّف الناس بشئون دينهم.

مساوىء اليهود وعداوتهم للمؤمنين

وبعد أن بيّن القرآن أنّ اليهود والمشركين اتخذوا دين الإسلام سخرية ولعباً أمر الله رسوله محمداً بأن يخاطب اليهود بقوله:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لأهل الكتاب هل تعدُّون علينا ذنباً أو نقيصة إلا أن صدّقنا بالله وأقررنا بوحدانيته **﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾** وإيماننا بما أنزل إلينا من القرآن، وإيماننا بما أُنزل إلى أنبياء الله من الكتب السماوية قبل نزول القرآن **﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾** مع أن أكثركم مخالفون أمر الله خارجون عن طاعته.

روي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس: أتى رسول الله نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ قال: أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً منكم، فنزلت هذه الآية وما بعدها.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ مثوبة: جزاء ثابتاً على العمل وهو مصدر ميمي بمعنى الثواب، ويقال في الخير والشر إلا أن أكثر المتعارف استعماله في الخير، واستعمالها هنا في الشر على طريقة التهكم بهم كما في قوله تعالى: **﴿فبشّرهم بعذاب أليم﴾** والبشرى هي الخبر السارّ. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود هل

أخبركم بمن هو شر وأسوأ حالاً في العقوبة الثابتة لكم عند الله؟ هو ما أنتم عليه من ضلال. وليس في الدين الإسلامي ولا في أهله أدنى شيء من شر بل كله خير محض وإنما اعتبر قوله **﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾** من باب المجاراة لهؤلاء اليهود فيما اعتقدوه **﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾** أي شر من ذلك من طردهم الله من رحمته وأبعدهم عن رضاه وحل عليهم سخطه **﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾** أي وجعل الله منهم من يشبه القردة في نزواتها واستيلاء الشهوات على نفوسها وتقليدها الأعمى وعبثها، كما جعل منهم من يشبه الخنازير في انغماسها في كل ما هو قذر، ويأكلون من المحرمات كما تأكل الخنازير من القاذورات **﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾** وجعل منهم من عبد الشيطان ورؤساء الضلال الذين قادوهم إلى الكفر بما أنزل الله **﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾** أولئك في شر المكانة وأحط المقام في الدنيا والآخرة **﴿وَأَضَلُّ عن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** وأكثر انحرافاً وبعداً عن الطريق السويّ المستقيم والدين الحق. والسواء: الوسط المعتدل.

﴿وإِذَا جَاءُوكم قَالوا آمَنَّا﴾ نزلت هذه الآية في جماعة من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله يظهرون له الإيمان نفاقاً. والخطاب هنا للنبي ﷺ وللمؤمنين، أي وإذا جاءكم هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا: آمنا بالنبي محمد ﷺ وما أُنزِلَ عليه من ربه **﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾** وقد دخلوا عليكم ـ أيها المؤمنون ـ متلبسين بالكفر الذي يعتقدونه بقلوبهم ويضمرونه في صدورهم، وهم قد خرجوا من عندكم متلبسين بالكفر، فحالهم عند خروجهم كحالهم عند دخولهم

لم يتحولوا عن كفرهم، ولم تتأثر قلوبهم بالمواعظ التي يلقيها النبي ﷺ على أسماعهم، وفي هذا إشارة إلى أنهم ما دخلوا على النبي ﷺ بقلب سليم بل دخلوا مخادعين منافقين **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾** والله أعلم بما كانوا يخفونه في صدورهم من كفر ونفاق والحرص على إلحاق الضرر بالمسلمين وتدبير الكيد لهم.

﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنهُم يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ﴾ وترى ـ أيها النبي ـ كثيراً من اليهود يبادرون بسرعة وبدون تردد إلى ارتكاب المعاصي ولا يتحاشون شيئاً من الكفر **﴿وَالعُدْوَانِ﴾** وهو مُجاوزة الحد في الظلم والتعدي على الغير **﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾** وأكل المال الحرام عن طريق الرشوة والربا.

فاليهود هم الذين نشروا الربا في الأرض، واتخذوا الرشوة سبيلاً لبسط سلطانهم في الأرض، فهم يرشون الدول الكبرى عن طريق السياسيين فيها فينالون منها التأييد والمعونة في ارتكاب الظلم، وهم الذين اتخذوا الاحتكار ذريعة لمضاعفة ثرواتهم **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** ذم لهم على أعمالهم هذه لمخالفتها أوامر الله.

﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ لولا: بمعنى هلاّ، وهي هنا للتحضيض والتوبيخ. والربانيون: علماء النصارى، والأحبار: علماء اليهود **﴿عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾** أي هلاّ ينهاهم علماء الإنجيل وعلماء التوراة عن قول الكذب وعن أكل المال الحرام وفي هذا توبيخ شديد وذم بليغ لعلمائهم الذين تركوا النهي عن هذه المنكرات، لذا عقّب القرآن على ذلك قوله: **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا**

يَصْنَعُونَ﴾ أي بئس ما كان يصنع علماؤهم من تركهم النصيحة لقومهم ونهيهم لهم عن المعاصي. وكان علماء المسلمين يقولون: ما في القرآن آية هي أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها. كما أن الآية دلت على أن تارك النهي عن المنكر ومرتكبه في الذم سواء.

وهذه العبارة **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** التي جاءت في حق علمائهم أبلغ من قوله تعالى: **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾** التي وردت في الآية السابقة في ذم أعمال اليهود وذلك لأن الصنع أقوى من العمل. فإن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار راسخاً متمكناً بدقة ومهارة وإحكام، فجعل الله ذنب العاملين بالمعاصي ذنباً غير راسخ حيث عبّر عنه بالعمل، وجعل ذنب العلماء التاركين النهي عن المنكر ذنباً راسخاً متمكناً فيهم حيث عبّر عن ذلك الترك بالصنع، مما يفيد أن العلماء التاركين النهي عن المنكر أسوأ حالاً وأعظم ذنباً من الذين يرتكبون الذنب.



﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾

شرح المفردات

يد الله مغلولة: أي يد الله مقبوضة عن العطاء بخلاً.

غلت أيديهم: دعاء عليهم بالبخل.

يداه مبسوطتان: أي عظيم الكرم والعطاء.

طغياناً: تجاوزاً للحد في العصيان.

أوقدوا ناراً للحرب: أثاروا الفتن ودبروا المكائد التي تؤدي إلى وقوع الحرب بين الناس.

لكفرنا عنهم سيئاتهم: محاها الله ولم يعاقبهم عليها.

لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم: لوسّع عليهم أرزاقهم.

الأمة: كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما إما دين واحد أو زمان أو مكان.

مقتصدة: معتدلة.

طغيان اليهود وفسادهم في الأرض

وبعد أن بين القرآن سلوك اليهود السيىء بالنسبة لغيرهم من الأمم، بيّن في الآيات التالية حالهم مع ربهم:

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ والغل ما تقيد به يد الشخص ليكون عاجزاً عن التصرف، وقيل للبخيل: هو مغلول اليدين لأنه لا يحركهما بالبذل والعطاء ومن ذلك ما حكاه الله عن اليهود بأنهم قالوا: يد الله مغلولة، وهو مجاز عن البخل من قبيل الاستعارة التمثيلية.

فالله سبحانه بسط على اليهود الرزق حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله وكذبوا برسول الله محمد ﷺ كف عنهم ما بسط الله عليهم من الرزق فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء اليهودي **﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾** وحيث لم ينكر عليه الآخرون ورضوا بمقالته نسبت تلك المقالة التي تحمل الافتراء على الله إلى الكل.

ثم رد الله عليهم بقوله: **﴿غُلَّت أَيدِيهِم﴾** دعاء عليهم بالشح المرير الذي يجعلهم مبغوضين من الناس منبوذين من المجتمع أو دعاء عليهم بأن تقيد أيديهم في الدنيا بأخذهم أسارى وَالعذاب في الآخرة **﴿وَلُعِنُوا بِما قَالُوا﴾** وطُردوا وأُبعدوا من رحمة الله **﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** وبسط اليد هنا مجاز عن الجود والإنعام على خلقه وعبّر القرآن بالمثنى (يداه) للإشارة إلى كثرة الفيض الإلهي والعطاء العميم على خلقه كأنه يعطي بيدين لا بيد واحدة، فهو يبسط يديه بالعطاء على الطريقة التي يريدها، لذا قال سبحانه بعد ذلك **﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** أي يرزق كيف يشاء لأن إنفاقه تابع لمشيئته المبنية على

الحكمة، وبسبب معاصي اليهود ضيّق الله عليهم.

وأما الكلام عن اليد بالنسبة إلى الله فهي صفة من صفات الله وليست بجارحة، وهي كغيرها من صفات الله كالسمع والبصر فيجب الإيمان بها كما جاءت في القرآن والسنّة مع نفي الكيفية والتشبيه لأن الله لا يشبه أحداً من خلقه كما جاء في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ويمكن أن تكون اليد مجازاً يراد بها القدرة أو النعمة.

﴿وَلَيزيدَنَّ كثيراً مِنهُم مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ والمراد بالكثير: علماء اليهود ورؤساؤهم. أكد الله فساد قلوبهم بقوله **﴿وليزيدن﴾** بلام القسم ونون التوكيد، أي والله ليزيد علماء اليهود ورؤساؤهم ما أنزل إليك يا محمد من القرآن طغياناً أي غلواً في إنكار ما قد علموا صحته من نبوتك والتمادي في ذلك، ويزيدهم مع غلوهم في إنكار ذلك جحودهم عظمة الله ووصفهم إياه بغير صفته بأن نسبوه إلى البخل. وخص الله ذكر الكثير إذ فيهم من آمن بالله ومن لا يطغى ويخرج عن جادة الحق.

﴿وألْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَومِ القِيَامَةِ﴾ فقد افترق اليهود إلى فرق كثيرة يناوىء بعضهم بعضاً فمنهم الجبرية والقدرية والمشبهة وهم ينكرون أن يكون اليهود من غير بني إسرائيل ويعادون السامرة الذين لم يكونوا من أصل إسرائيلي، وستظل العداوة والبغضاء مستحكمة بين فرقهم إلى يوم القيامة **﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلحَرْبِ أطْفَأَهَا اللَّهُ﴾** أي هؤلاء اليهود لحسدهم المستمر للناس ولكراهيتهم لهم يثيرون الحروب بين الناس، وعبّر القرآن عن إثارة الحروب بإيقاد نارها وبما

تشتمل عليه من مذابح بشرية تشبه النار المستعرة وإن أساليب اليهود في ذلك معروفة في كل زمان، وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك[١].

ولكن القرآن يقرر أنهم كلما أشعلوا ناراً للحرب خذلهم الله في مسعاهم، وارتد كيدهم على أنفسهم، وهم لا يقتصرون على ذلك بل **﴿وَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فَسَاداً﴾** وذلك بإثارة الفتن وإيقاظ الأحقاد ونشر الرذيلة **﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ المفْسِدِينَ﴾** والله سبحانه يمقت الذين يعيثون في الأرض فساداً فلا يصلح عملهم ولا ينجح سعيهم لأنهم مضادون للحكمة الإلهية التي تريد صلاح الناس وعمران البلاد.

﴿وَلَوْ أنّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي ولو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله محمد فصدقوه واتبعوه وآمنوا بما أُنزل عليه من القرآن واجتنبوا ما نهاهم الله عنه وخافوا عقابه، ورجوا ثوابه، لو فعلوا ذلك **﴿لَكَفَّرْنَا عنْهُم سيِّئَاتِهِمْ﴾** أي محا الله عنهم ذنوبهم وسترها ولم يفضحهم بها **﴿وَلأَدْخَلْنَاهُم جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾** ولأدخلهم الله جنات ينعمون فيها في الآخرة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ﴾ أي ولو أن أهل الكتاب عملوا بما في التوراة والإنجيل من الأحكام وما فيهما من أوامر ونواهٍ ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه، وأقروا بما اشتملت عليه كتبهما الإلهية من المبشرات بمجيء نبي تنطبق صفاته على صفات النبي محمد ﷺ فآمنوا به عند بعثته **﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** وهو القرآن، أي التزموا العمل بالقرآن المنزل من عند ربهم الذي ينسخ ما قبله من

(١) راجع كتاب (اليهود في القرآن) للمؤلف.

الشرائع ويجمع محاسن الكتب السماوية ويصحح ما فيها من أخطاء، أي لو فعلوا ذلك وقاموا بما خوطبوا به حق القيام **﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾** أي لوسّع الله عليهم أرزاقهم من السماء التي تجود بالمطر، ومن الأرض التي تنبت صنوف النبات، ولأحاطت بهم الخيرات من كل جانب. وهنا إشارة بأن إقامة شرع الله تأتي بالرزق الرغيد لمن أخذ بالأسباب واعتمد على الله حق الاعتماد **﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾** مقتصدة: معتدلة من غير غلوّ ولا تقصير، أي منهم جماعة عادلة قالوا في عيسى هو عبد الله ورسوله كالذين آمنوا من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، والنجاشي ملك الحبشة وأصحابه الذين أسلموا ومن نهج نهجهم **﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾** أي وكثير من اليهود والنصارى ساء عملهم، فكذب النصارى برسول الله محمد ﷺ، وزعموا أن المسيح ابن الله، وكذب اليهود بعيسى وبمحمد، فهؤلاء أفرطوا في عنادهم وظلوا على كفرهم فاستحقوا الذم والملامة بسبب موقفهم البغيض.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

شرح المفردات

يعصمك: يحفظك وينجيك.

طغياناً: تجاوزاً للحد في الضلال والعصيان.

فلا تأس: فلا تحزن ولا تتأسف.

وقاية الله لرسوله محمد ﷺ من الأخطار

كان رسول الله محمد ﷺ مهدداً من كثير من الأعداء سواء من المشركين أو اليهود وكان ذلك مما يثير في نفسه الخوف والقلق على سلامة الدعوة الإسلامية إبّان تبليغها، لذا نزلت الآية التالية تطمئن رسول الله بأن الله حافظه وأن عليه تبليغ ما أنزل عليه من الوحي بدون وجل، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ النداء للنبي ﷺ بوصف الرسالة لتشريفه بهذا الوصف الكريم لافتاً نظره إلى المهمة التي سيكلف بها وهي تبليغ جميع ما أنزله ربه إليه من آيات القرآن إلى

الناس كافة ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي وإن لم تبلّغ يا محمد كل ما أُنزل إليك من الوحي إلى الناس فما بلّغت رسالة الله، لأن من يؤمر بتبليغ كلام فيحذف بعضه أو يكتمه لا يُعدّ أنه قد بلّغ كلام الله إلى من أرسل إليهم، فتبليغ الرسالة تقتضي أن تكون بتمامها ولا تقبل التجزئة ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي أن الله يحفظك من كيد أعدائك ويجعل لك وقاية من كل خطر يتهددك. وكان لرسول الله حرس يحرسونه فلما نزلت هذه الآية قال لحراسه: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إن الله لا يرشد الكافرين إلى طريق الحق بسبب عنادهم وإيثارهم الضلال على الهدى.

هذا الشطر من الآية ﴿والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هو من معجزات القرآن التي تدل على أن القرآن وحي إلهي. فمن يصدق أن رجلاً يطعن في معتقدات قومه القائمة على عبادة الأصنام ويسفه عقولهم ويقضي على زعاماتهم ثم يسلم من كل الأخطار التي تهدده لولا وقاية الله له.

لقد مكث رسول الله ﷺ بضع عشرة سنة يبشر بالدعوة الإسلامية صابراً على شدة إيذاء العرب له بمكة، وقد تطور هذا الإيذاء إلى عدة محاولات لقتله ولكنه نجا منها كلها، ثم تطورت بعد ذلك الأحداث حتى أجمع أعداؤه على قتله فهاجر متخفياً إلى المدينة المنورة، وهناك تألبت عليه قبائل العرب واليهود لإبْطالِ دعوته، ولكن الله أنجاه من كل المحاولات للقضاء عليه.

هذه الجملة ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ليست من ذاتية محمد وتأليفه كما يدعي أعداء الإسلام بل هي وحي إلَهي من عند ربه.

ونتساءل: ما مصير الدعوة الإسلامية لو أن أعداءه تمكنوا من قتله بعد هذا الإعلان بأن الله يعصمه؟ أما يكون ذلك سبباً لهدم الإسلام من أساسه والشك بأنه من عند الله؟ فليرعو الذين يَشكُّون في نبوة محمد ﷺ، وليأخذوا من هذا النص القرآني برهاناً على أن محمداً هو رسول الله حقاً.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُم عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإنجيلَ﴾ أي قل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن الله تعالى: لستم على شيء له وزن من أمر الدين، ولا في أيديكم شيء من الحق والصواب حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل فيما أمرا به من التوحيد الخالص لله تعالى والعمل الصالح والوفاء بعهود الله والإقرار بما فيهما من أقوال تبشر برسالة محمد فتؤمنوا به عند مبعثه ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وحتى تؤمنوا بما أُنزل إليكم من ربكم من القرآن الذي أكمل الله به دين الأنبياء والمرسلين فتعملوا بأحكامه وتهتدوا بهديه.

﴿وَلَيزيدَنَّ كَثيراً مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً﴾ هذه الآية تكرار لما سبق وفيها يخبر الله رسوله محمداً بأن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي ختم الله به كتبه الإلهية إلا طغياناً على الحق وإمعاناً في الضلال. فالقرآن المنصف لا يحكم على الجميع بالشر وفيهم أخيار، ولذلك كان حكمه على الكثرة لا على القلة. ويختم الله هذه الآية بقوله: ﴿فَلاَ تأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي فلا تحزن يا محمد ولا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم فإن ضرر ذلك راجع إليهم وحدهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

شرح المفردات

الصابئون: قوم يقرون بالله ويقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة وقد أخذوا من كل دين شيئاً.

ميثاق: عهد مؤكد يلزم صاحبه الوفاء به.

تهوى: الهوى ما تميل إليه النفس من الشهوات مما يجانب الحق ويستعبد النفوس.

وحسبوا ألا تكون فتنة: أي ظن اليهود أنه لا يصيبهم من الله بلاء وعذاب بقتل الأنبياء.

الناجون في الآخرة

ويتابع القرآن فيذكر فئات الناجين في الآخرة من عذاب الله الحائزين على رضاه، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِين آمَنُوا﴾ والمراد بهم الذين صدقوا برسالة محمد فيما أتاهم به من الحق من عند ربهم واستمروا على إيمانهم **﴿وَالَّذِينَ**

هَادُوا﴾ أي اليهود ويطلق عليهم بنو إسرائيل وهم أتباع موسى عليه السلام، ومن جاء بعده من الأنبياء حتى نبوة عيسى عليه السلام **﴿والصَّابِئُونَ﴾** قيل هم قوم آمنوا بوحدانية الله ولكنهم قالوا بوجود وسائط بين الخالق والمخلوقات هي الكواكب، وقيل إنهم يعبدون الملائكة أو الكواكب ويزعمون أنهم على دين صابىء بن شيث بن آدم **﴿والنَّصَارَى﴾** سموا بذلك لأنهم ادعوا أنهم أنصار عيسى عليه السلام، وقيل سموا بذلك نسبة إلى قرية النصارى التي ظهر بها عيسى عليه السلام واتبعه بعض أهلها **﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾** وذلك يتضمن الإيمان بوحدانيته وأنه الخالق وحده والمهيمن على الوجود، أَحَدٌ لا شريك له، وأنه لا يشبه أحداً من خلقه، وليس بوالد ولا ولد **﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** وهو الإيمان بالبعث والحساب والعقاب والثواب، وأن الإنسان مجزيٌّ بعمله إن خيراً فخير أو شراً فشرّ **﴿وَعَمِلَ صَالحاً﴾** أي عمل صالح الأعمال للتقرب إلى الله وترك سيئات الأفعال خوفاً من الله سبحانه **﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم﴾** أي هؤلاء جميعاً لا خوفٌ عليهم من عقاب ولا من أهوال يوم القيامة **﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وزينتها إذا عاينوا ما أعد الله لهم من النعيم الدائم، فالفوز بنعيم الآخرة يكون بإيمان صحيح له سلطان على القلوب يؤدي إلى العمل الصالح، فلا تفرقة أمام الله بالجنسية ولا بالملة، فكلهم عباد الله يجزيهم سبحانه على حسب أعمالهم.

هذا بالنسبة إلى الأمم الماضية، أما الذين تبلغهم دعوة الإسلام من تلك الملل المذكورة آنفاً ثم لم يقبلوها فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا أنهم يؤمنون بغيرها لأن شريعة الإسلام تنسخ

الشرائع السابقة، وتجمع محاسن الكتب السماوية وتصحح ما دخل عليها من تحريف وتبديل، وتبين أسس السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إسْرائيلَ﴾ والميثاق: هو العهد المحكم الذي يلزم صاحبه بالوفاء به. ولقد أكد الله هذا العهد الذي أخذه على بني إسرائيل بلفظ (قد) الذي يفيد التحقيق ولم يذكر الله سبحانه هنا موضوع هذا الميثاق اكتفاء بما ذكره في مواطن أخرى من القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿وَأَرْسَلْنا إلَيْهِم رُسُلاً﴾ والتنكير في **﴿رسلاً﴾** يفيد التكثير، أي أرسل الله إليهم كثيراً من الرسل ليرشدوهم إلى ما فيه سعادتهم **﴿كُلَّما جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوى أَنْفُسُهم فَريقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾** أي أنهم نقضوا العهد وعصوا رسل الله فكانوا كلما جاءهم رسول من عند الله بما لا تحبه أنفسهم ولا يوافق أهواءهم ناصبوه العداء فكذبوا بعض الرسل وقتلوا البعض الآخر.

والتعبير بالفعل المضارع **﴿يقتلون﴾** لاستحضار فظاعته في الذهن وأن لا ننزع دائماً من أذهاننا صورة قتلهم للرسل وبشاعتها، وقد قال علماء العربية إن التعبير بالفعل المضارع يكون لاستحضار صورة الفعل.

﴿وَحَسِبُوا أنْ لا تكونَ فِتْنَةٌ﴾ وظن اليهود أنهم لا يصيبهم من الله عذاب ومكروه بتكذيبهم للرسل أو قتلهم لهم لإمهال الله لهم وعدم

معاجلته بعقابهم **﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾** من العمى الذي هو ضد الإبصار، ومن الصمم الذي هو ضد السمع، أي عموا عن الدين الذي جاء به الرسل فلم يروا ما فيه من الخير لهم، وصموا آذانهم عن الاستماع إلى ما اشتمل عليه من الوعظ وإرشاداته، فاستعارة العمى والصمم لحالهم لبيان عدم انتفاعهم بدعوة الرسل كما لا ينتفع الأعمى بما يرى والأصم بما يسمع **﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾** أي ثم قَبِلَ الله توبتهم عندما أقلعوا عن ذنوبهم وندموا على ما اقترفوا من آثام **﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كثيرٌ مِنْهُمْ﴾** ثم رجعوا إلى ما كانوا عليه من ضلال وفساد فعموا عن آيات الله في كتبه الدالة على عقاب الله للأمم الظالمة، وصموا آذانهم عن سماع المواعظ التي جاءهم بها الرسل **﴿وَاللَّهُ بَصيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾** والله سبحانه بصير يرى أعمالهم فلا يخفى عليه شيء فيجازيهم يوم القيامة على ما فعلوه إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشرّ.

فاليهود لمّا عموا وصموا عن القبول بدعوة الرسل وانهمكوا في الظلم والفساد سلط الله عليهم البابليين فأحرقوا معبدهم في القدس ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم، وسلبوهم الملك والاستقلال، ثم رحمهم الله بعد ذلك وتاب عليهم، وأعاد إليهم ملكهم وعزهم، ثم عموا وصموا مرة أخرى وعادوا إلى ظلمهم وإفسادهم في الأرض فسلط الله عليهم الفرس ثم الرومان فأزالوا ملكهم واستقلالهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

شرح المفردات

كفر: الكفر هو نقيض الإيمان وجحود وحدانية الله ونعمه على خلقه وستر الحق وإنكاره.

أنصار: أعوان.

ثالث ثلاثة: ثالث آلهة: الله أحدهم، والآخران عيسى وروح القدس.

ينتهوا: يمتنعوا.

خلت: مضت.

صدّيقة: دائمة الصدق مع الله تعالى.

أنّى يؤفكون: كيف يصرفون عن الحق مع قيام البرهان عليه.

حقيقة عيسى عليه السلام ونفي الألوهية عنه

بعد أن تحدث القرآن عن اليهود ونقضهم عهد الله وإفسادهم في الأرض وتكذيبهم لبعض الأنبياء وقتلهم البعض الآخر جاء الكلام على النصارى وانحرافهم عن توحيد الله إلى الإشراك به، قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أكد الله كفر النصارى وخروجهم عن الإيمان بلفظ **﴿لقد﴾** اللام الداخلة على قد للقسم و (قد) للتحقيق وكان كفرهم بسبب ادعائهم أن الله هو المسيح مع أنه بشر وهو ابن مريم، ومن كان بشراً لا يصح أن يكون إلهاً.

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيل اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ والحال أن عيسى قال لبني إسرائيل حين أرسله الله إليهم لهدايتهم: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً فهو ربي الذي خلقني وتعهدني بالتربية والرعاية وهو ربكم أيضاً. فهذا النص **﴿ربّي وربّكم﴾** يمنع الألوهية عن المسيح من ناحيتين: **الناحية الأولى:** إثبات أن الله هو ربه الذي خلقه ونمّاه وأنشأه، **والناحية الثانية:** التسوية بينه وبين غيره من الخلق في التكوين والإنشاء والتربية.

ثم حذر الله سبحانه من الشرك وما يترتب عليه من العقوبة في الآخرة: **﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾** ظاهر السياق أنه كلام السيد المسيح ويصح أن يكون ذلك الكلام مستقلاً عن كلام السيد المسيح وأنه تقرير لمقام وحدانية الله. فالله سبحانه حرّم دخول الجنة في الآخرة على من أشرك في عبادته أحداً من خلقه، وأن مقر المشركين في الآخرة هو في نار جهنم **﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾** ولا ينصر هؤلاء الذين يشركون بالله ناصر في

الآخرة فينجيهم من عذاب الله. فالإشراك بالله هو أعظم الذنوب عند الله التي لا يغفرها سبحانه وقد جاء في القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الّذين قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ أثبت الله كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، حيث أطلقوا على الله سبحانه لقب الآب وهو الأقنوم الأول، وأشركوا مع الله في الألوهية: الابن وهو عيسى عليه السلام وهو الأقنوم الثاني، والأقنوم الثالث هو: روح القدس ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هنا نفي الألوهية عن غير الله. وفي قوله تعالى: ﴿إِلاّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يفيد حصر وصف الألوهية في الإلّه الواحد فانتفت الألوهية عن التثليث المحكي عنهم ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ هذا تحذير ووعيد لهم لِمَا هم عليه من ضلال وكفر ولِمَا ينطقون من أن الله ثالث ثلاثة ﴿لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُوا مِنهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب شديد موجع، وقد أكد القرآن ذلك بلام القسم الداخلة على ﴿يَمَسَّنَّ﴾ وبنون التوكيد.

﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ أفلا: تفيد الحث على فعل الشيء وهي هنا تحثهم على التوبة والندم عما صدر منهم، والرجوع إلى الحق وهو أن الله واحد لا شريك له، كما تحثهم على طلب المغفرة من الله على ما سلف من ذنوبهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله سبحانه بالغ الغفران للتّائبين، ويرحم المذنبين المستغفرين ويتجاوز عن سيئاتهم.

﴿ما المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾

فالمسيح في الحقيقة ما هو إلا رسول من عند الله ومن ضمن الرسل الذين مضوا قبله ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ صدّيقة: صيغة مبالغة من الصدق، أي أمه مريم كثيرة الصدق لم تكذب قط، ومصدقة لما جاء به ولدها عيسى، والقصد من وصفها بذلك مدحها والثناء عليها ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ فالمسيح عليه السلام وأمه مريم هما كسائر البشر كانا يأكلان الطعام لحفظ حياتهما، ولو أنهما حرما الطعام لهلكا كسائر الكائنات الحية، ومن كان هذا شأنه لا يكون إلهاً وقد جاء في القرآن في شأن الله سبحانه ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُر أَنّى يُؤْفَكُونَ﴾ انظر يا محمد وتأمل في شأن هؤلاء الذين بيّن الله لهم الدلائل الواضحات على أن عيسى بشر اصطفاه الله بالنبوة، ثم تأمل كيف يُصْرَفون عن الحق ويبتعدون عنه بعد هذا البيان الواضح المقنع.

المسيح نبي ورسول من عند الله

يستوقفنا في الآيات التي مرت قوله تعالى ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي أن المسيح عليه السلام رسول من رب العالمين إلى بني إسرائيل كما جاء في القرآن أيضاً ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦] كما أن القرآن سبق أن ذكر بأن المسيح هو نبي من أنبياء الله، حيث أنطقه الله في المهد قائلاً: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

والجدير بالذكر أنني في مطالعاتي للأناجيل رأيتها تتفق مع ما جاء في القرآن في هذا الصدد حيث وصفت السيد المسيح بالنبوة وكانت هذه الصفة اعتقاد الجماهير الذين كانوا يعاصرونه فقد كانوا يصفونه بأنه نبي ويذكرون ذلك على مسمع منه وهو يقرهم على ذلك فمن تلك النصوص:

ما جاء في إنجيل يوحنا بعد ذكره لمعجزة تكثير أرغفة الشعير الخمسة والسمكتين:

«فلما رأى الناس الآية التي أتى بها يسوع، قالوا: حقًّا هذا هو النبي الآتي إلى العالم» [٦: ١٤].

وفي إنجيل متى: «ولما دخل أُورشليم ضجَّت المدينة كلها وسألت: «من هذا» فأجابت الجموع: «هذا النبيُّ يَسوع من ناصِرَةِ الجليل» [٢١: ١٠، ١١].

وفي إنجيل لوقا حيث ينسبون للمسيح قوله: «ولكن يجب عَلَيَّ أن أسيرَ اليوم وغداً واليوم الذي بعدهما لأنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يَهلِكَ في خارج أُورشليم» [١٣: ٢٨].

وفي إنجيل مرقس: فقال لهم يسوع: «لا يُزْدَرى نبيٌّ إلا في وطنه وأقاربه وبيته» [٦: ٤] ففي هذا النص عبّر يسوع عن نفسه بأنه نبي.

وفي إنجيل يوحنا: «لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبيّ كرامة في وطنه» [٤: ٤٤].

وفي إنجيل لوقا، أن المسيح عندما قال لميّت: قُمْ، فَجَلَس الميّت

وأخذ يتكلم، فقال تلاميذه وجمع كثير من الناس: «قام فينا نبيٌّ عظيم وافتقد الله شعبه» [٧: ١٤، ١٥].

المسيح رسول من عند الله: وفي الأناجيل أيضاً نصوص تثبت بأن المسيح هو رسول من عند الله إلى بني إسرائيل وإليكم ما جاء في الأناجيل على لسان المسيح في تقرير ذلك:

ففي إنجيل متى يقول السيد المسيح: «لم أُرْسَل إلاّ إلى الخِرافِ الضَّالَّة من بيت إسرائيل» [١٥: ١٤].

وينقل إنجيل يُوحنّا عن السيد المسيح قوله: «لأني لم أتكلّم من عندي بل الآب الذي أرسلني هو الذي أوصاني بما أقول وأتكلم، وأنا أعلم أن وصيته حياة أبدية، فما أتكلم به أنا، أتكلم به كما قال لي الآب» [١٢: ٤٩، ٥٠].

وفي إنجيل يُوحنا ينقل أيضاً عن السيد المسيح قوله: «ولكنكم تريدون الآن قتلي، أنا الذي قال لكم الحق الذي سمعه من الله..» [٨: ٤].

وفي إنجيل يُوحنا نقلاً عن يسوع قوله: «من لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلمة التي تسمعونها هي ليست لي بل للآب الذي أرسلني» [١٤: ٢٤].

وفي إنجيل يوحنا نقلاً عما قاله يسوع: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك والذي أرسلته يسوع المسيح» [١٧: ٤].

مسألة التثليث

جاء في قاموس الكتاب المقدس عن عقيدة النصارى الحالية في مسألة التثليث ما يأتي:

«**طبيعة الله**: الله واحد وهو ثلاثة أقانيم متساوية في الجوهر: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فالآب هو الذي خلق العالمين بواسطة الابن، والابن هو الذي أتم الفداء وقام به، والروح القدس هو الذي يطهر القلب والحياة، غير أن الأقانيم الثلاثة يشتركون في جميع الأعمال الإلهية على السواء...»(١).

«والكلمة نفسها «التثليث أو الثالوث» لم ترد في الكتاب المقدس ويظن أن أول من صاغها واستعملها هو ترتليان في القرن الثاني للميلاد»(٢) انتهى كلامه.

ثم تطورت عقيدة التثليث حيث عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م وأقر فيه ألوهية المسيح إلى جانب ناسوتيته. أما التثليث فلم يكتمل بشكله الحالي إلا في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م الذي أقر فيه ألوهية روح القدس ليتم الثالوث المعروف عند المسيحيين. من هنا يتضح أن التثليث أقر بعد المسيح عليه السلام بأكثر من ثلاثة قرون.

وجاء في كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) لمؤلفه هـ.ج.ولز: «وسنرى من فورنا كيف مزق الشقاق حول مسألة الثالوث فيما بعد العالم المسيحي بأسره وليس هناك من دليل واضح على أن حواريي المسيح اعتنقوا ذلك المبدأ»(٣).

(١) قاموس الكتاب المقدس ـ صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى ـ ط ٢ ص ١٠٧.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٢.

(٣) ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ المجلد الثالث ـ ط ٤ ـ ص ٦٩٢.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

شرح المفردات

من دون الله: من غير الله.

لا تغلوا: لا تبالغوا مبالغة شديدة.

أهواء: شهوات.

سواء السبيل: طريق الحق والهداية.

على لسان داود وعيسى ابن مريم: في الزبور والإنجيل.

لا يتناهون عن منكر فعلوه: لا ينهى بعضهم بعضاً عن اقتراف المعاصي.

يتولون: يوالون ويناصرون.

سخط: غضب غضباً شديداً.

أولياء: أنصار.

فاسقون: خارجون عن شعائر الدين الحق.

مغبّة عدم إنكار المنكرات

وبعد أن بيّن القرآن انتفاء الألوهيّة عن المسيح وأمه مريم لحاجتهما إلى الطعام، بيّن بعد ذلك في الآية التالية دليلاً آخر على بطلان ألوهيتهما، قال تعالى:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً﴾ الاستفهام في قوله تعالى: **﴿أَتَعْبُدونَ﴾** لإنكار واقع النصارى والتعجب مما صدر منهم، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء النصارى وأمثالهم في الشرك: أتعبدون من غير الله من لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال؟ هذا مع العلم أن اليهود كانوا يعادون المسيح ويقصدونه بالسوء فما استطاع الإضرار بهم. ومعنى قوله تعالى **﴿وَلا نَفْعاً﴾** أي أتعبدون من لا يستطيع أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الأبدان وسعة الأرزاق، هذا مع العلم أن أنصار المسيح كانوا مضطهدين فما استطاع المسيح إيصال النفع لهم وإنقاذهم مما هم فيه من البلايا.

ويختم الله الآية بقوله: **﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ﴾** والله وحده هو الذي يسمع أقوالكم وهو العليم بجميع أحوالكم وأعمالكم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا في دِينكم غَيْرَ الحَقِّ﴾ الغلوّ: هو تجاوز الحد، والغلوّ في الدين هو التعصب الأعمى والتشدد فيه.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء النصارى: لا تتجاوزوا الحد وتتشددوا في دينكم متجاوزين الحق إلى الباطل، فتبالغوا في تقديس المسيح تقديساً تخرجوه عن نطاق البشر إلى مقام الألوهية **﴿ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاء**[1] **قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾** أي ولا تتبعوا أهل الضلال والهوى من أسلافكم وعلمائكم ورؤسائكم الذين ضلوا من قبل بعثة النبي محمد ﷺ بتحريفهم الكتب السماوية جرياً وراء شهواتهم وأهوائهم واتبعوا ما كانت عليه الأمم والفلاسفة من عقائد باطلة، وخرجوا عن توحيد الله إلى الشرك به **﴿وَأَضَلُّوا كَثِيراً﴾** أي وأضل رؤساء دينكم كثيراً ممن تبعهم فيما دعوا إليه **﴿وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ﴾** وأخطأوا سلوك طريق الحق والهداية.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَني إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَان دَاوُدَ وعيسى ابنِ مَرْيَمَ﴾ أي لُعِن هؤلاء الكفار من اليهود على لسان عيسى ابن مريم، ولعنوا في الزبور على لسان داود، واللعن هو الطرد من رحمة الله، كما يعبّر باللعن عن مقته سبحانه وغضبه. وقد جاء الفعل **﴿لُعِن﴾** بالبناء للمجهول لأن الفاعل معلوم وهو الله، ولأن الأنبياء لا يلعنون أحداً إلا بإذن الله، وهما أي داود وعيسى لا يملكان الطرد من رحمة الله **﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** هذا بيان لسبب لعنهم وهو: مخالفة أوامر الله، وبسبب استمرارهم في البغي والعدوان على الآخرين، فقد قتلوا بعض الأنبياء وبالغوا في إيذاء الآخرين. وقد عبّر

(١) الهوى: كل ما فيه شهوة ولذة، وكلمة الهوى في القرآن لا تكاد تستعمل إلا في مقام الذم في الاتباع وفي موضع الشر. جاء في القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [صَ: ٢٦].

القرآن عن العصيان بالفعل الماضي للإشارة إلى ثبات العصيان في طبائعهم، وعبّر عن الاعتداء بفعل المضارع لأنه مستمر فيهم متكرر الحدوث، وها نحن اليوم نشاهد اعتداءاتهم المستمرة على الشعب العربي في فلسطين بدون رأفة ولا رحمة.

﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْن عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوه﴾ وعدم التناهي عن المنكر، المراد منه: أنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عنه، وأنهم لا يرتدعون عنه، والمنكر: هو كل ما قبّحه شرع الله وحرّمه وهو ضد المعروف.

لقد تقاعس بنو إسرائيل عن النهي عن المنكر وسكتوا عنه فاستحقوا اللعن من الله، وهذا الحكم ينطبق ويسري على كل جماعة في الأرض تتقاعس عن النهي عن المنكر، فالسكوت عن المنكر هو رضاء ضمني به أو مشاركة فيه، كما أنه تشجيع للمفسدين في استمرارهم اقتراف المنكرات، وإذا شاعت المنكرات عمّ الناس بلواها، وحل بهم العذاب من حيث لا يشعرون[1] **﴿لَبِئْسَ مَا كَانوا يَفْعَلُونَ﴾** أي قَبُحَ ما فعل بنو إسرائيل من المنكرات وسكوت الآخرين عنها، وقد أكد الله سبحانه قبح فعلهم بالقسم، إذ اللام الداخلة على بئس هي لام القسم.

﴿تَرَى كَثيراً مِنْهُم يَتَوَلَّوْنَ الَّذِين كَفَرُوا﴾ أي ترى كثيراً من اليهود يخصّون المشركين بالمودة والنصرة ويحرضونهم على قتال المسلمين

(١) روى الإمام أحمد والترمذي عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعُنّه فلا يستجيب لكم».

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُم أنْفُسُهُم أنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أكّد الله ذمه لليهود بالقسم حيث قدّموا من الأعمال ما يستدعي غضب الله وسخطه عليهم في الدنيا والآخرة وذلك بمحاربتهم الإسلام وهو دين التوحيد الذي دعت إليه التوراة، وبسبب مناصرتهم المشركين الذين اتجهوا إلى غير الله في العبادة **﴿وفي العَذَابِ هُمْ خَالِدُون﴾** أي وسيكون جزاؤهم في الآخرة عذاب الله في النار أبد الآبدين.

﴿وَلَوْ كَانوا يُؤْمِنُون بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يصدّقون بوجود الله ورسوله محمد وبالقرآن الذي أنزله الله عليه **﴿مَااتَّخَذُوهُمْ أوْلِيَاءَ﴾** أي ما اتخذوا المشركين الذين لا يوحدون الله ولا يؤمنون بنبوة نبي مرسل نصراء لهم **﴿وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنهُم فَاسِقُونَ﴾** ولكن الكثير من اليهود انحرفوا عن الحق وخرجوا عن طاعة الله. وإنما قال الله سبحانه **﴿كَثيراً مِنْهُم﴾** لأنه يعلم أن فريقاً منهم سيؤمن بالإسلام مثل عبد الله بن سلام وأصحابه وهم قليلون.



﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٤) فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (٨٦)﴾

شرح المفردات

قسّيسين: جمع قسيس وهو رئيس ديني مسيحي.

رهباناً: الرهبان جمع راهب، وهو المتبتل المنقطع لعبادة الله وحرمان النفس من الطيبات والزواج.

أعينهم تفيض من الدمع: تمتلىء أعينهم بالدّمع حتى يتدفق من جوانبها لكثرته.

فاكتبنا مع الشاهدين: فاكتبنا مع المقرّين بنبيك.

وما لنا لا نؤمن بالله: وأي مانع يمنعنا من الإيمان بالله.

فأثابهم: فجازاهم الله وكافأهم.

الجحيم: اسم من أسماء جهنم حيث يُعذب بها العصاة بالنار.

موقف اليهود والنصارى والمشركين من المسلمين

وبعد أن ذكر الله سبحانه أحوال النصارى وغلوّهم بادّعاء ألوهية المسيح عليه السلام، كما ذكر أحوال اليهود وشيوع المنكرات فيهم دون إنكارها، بيّن الله في الآية التالية أحوال اليهود في عدائهم للمؤمنين من جهة، وبين مودة النصارى للمسلمين من جهة أخرى، قال الله تعالى:

﴿لَتجِدَنَّ[1] أشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذين آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِين أشْرَكُوا﴾

أقسم الله لرسوله محمد مؤكداً له بأن أشدّ الناس عداوة للمؤمنين اليهود والمشركون، وقدّم الله اليهود على المشركين لأن عداوتهم أشدّ وأقوى بسبب ما يضمرونه لصاحب الدعوة الإسلامية من الحسد والحقد والكبرياء.

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي انتقل فيها رسول الله إلى المدينة المنورة حيث جمع قبيلتي الأوس والخزرج على الإسلام وكانت هاتان القبيلتان مِنْ قَبْلُ حليفتين لليهود، كما أبرم العهود مع اليهود وسالمهم، ولكن اليهود نقضوا العهود ودبّروا المؤامرات لاغتيال رسول الله والقضاء على دعوته.

كما أنهم حاربوا الإسلام بتشويه تعاليمه السامية بما دسّوا فيه من الإسرائيليات.

وفي كل أدوار التاريخ كان لهم دور في العداء للإسلام، من ذلك ما دبروه في أوائل القرن العشرين من الانقلابات في تركيا بعزل الشريعة

(١) لتجدن: اللام الداخلة على تجدن لام القسم والنون هي نون التوكيد.

الإسلامية عن الحكم وإلغاء الخلافة الإسلامية.

وهم حالياً يتحالفون مع كل دولة تضمر العداء للإسلام ويمدونها بالسلاح والمعونات الاقتصادية، ويقومون بحملة مسعورة ضد العرب والمسلمين عن طريق أجهزة الإعلام التي يملكون الكثير منها في العالم، وإنّ المجازر التي يرتكبونها في فلسطين ضد العرب والمسلمين شاهدة على شدة عداوتهم للإسلام.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلّذين آمَنُوا الّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى﴾ أي وبالمقابل لتجدنّ يا محمد أقرب الناس محبة ومودة للمؤمنين الذين قالوا إنّا نصارى وذلك لما في قلوبهم من الرأفة والرحمة **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُم قسّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُم لا يَسْتكبِرُون﴾** لأن فيهم قسيسين يعلّمونهم دينهم ويتوددون إلى الإسلام الذي رأوا فيه ديناً يوافق كثيراً من المبادىء المسيحية، كما أن منهم رهباناً يُضرب بهم المثل في الزهد والإعراض عن متاع الدنيا وزينتها، ويغرسون في نفوس المسيحيين الخوف من الله، كما أن من أسباب مودتهم للمسلمين التواضع وأنهم لا يستكبرون عن الخضوع والإذعان للحق، وفي ذلك تعريض باليهود والمشركين العرب لأن غرورهم واستكبارهم جعلاهم ينصرفون عن الحق، فاليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار وأن النبوّة خاصة بهم، والمشركون يرون أن النبوّة يجب أن تكون في أغنيائهم وزعمائهم وهم الذين قالوا كما نقل عنهم القرآن ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾

الرسول: هو محمد ﷺ. وما أُنزل إليه: هو القرآن الكريم. أي من صفات علماء النصارى ورهبانهم أنهم إذا سمعوا ما أُنزل على محمد من قرآن تأثرت بِهِ قلوبهم وسالت الدموع من مآقيهم بغزارة **﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾** أي بسبب ما عرفوا من الحق الذي بيّنه القرآن **﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾** أي اتجهوا إلى ربهم معترفين بربوبيته وحده ومقرّين بالإيمان الصادق المنبعث من قلوبهم، وطلبوا من الله تعالى أن يكتبهم من الذين شهدوا بالحق وشهدوا برسالة النبي محمد ﷺ.

هذه الآيات التي وردت في النصارى قيل إنها جاءت في النجاشي ملك الحبشة وصحابته وإليكم بيان ذلك:

نزل بالمسلمين في بدء الدعوة الإسلامية كثير من الاضطهاد والتعذيب من قِبَلِ كفار قريش في مكة، عند ذلك أشار عليهم النبي محمد ﷺ بأن يهاجروا من مكة للنجاة بدينهم، فلما سألوه أين يذهبون؟ نصحهم بأن يذهبوا إلى بلاد الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه. وقد هاجر إلى الحبشة كثير من المسلمين، فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم أصابوا بها داراً وقراراً ائتمروا بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين من قريش إلى النجاشي ليقنعوه بردّ هؤلاء المهاجرين إلى مكة ليفتنوهم عن دينهم فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وجمعوا لهما هدايا ليقدموها إلى النجاشي ولبطارقته.

ولما مَثَلا بين يدي ملك الحبشة قالا له: أيها الملك قد ضوى - أي لجأ - إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وطلبوا من ملك الحبشة أن يردّ المسلمين إلى مكة، ثم قدّموا هداياهم إليه، فأبى النجاشي أن يقوم بطردهم حتى يسمع منهم ما يقولون في دينهم، وبعث في طلبهم، فلما مَثَلوا بين يديه سألهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل الحاضرة؟ فكان الذي كَلّمه هو جعفر بن أبي طالب الذي شرح له مبادىء الإسلام، وبعد أن انتهى من كلامه قال له النجاشي: هل معك مما جاء به نبيكم عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكت أساقفته حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[1] واحدة، ثم قال لِرَسُولَيْ قريش: انطلِقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما.

وعلى ضوء ما تقدم لا يعني أن معظم النصارى على مودة مع المسلمين، فالنصارى فئتان: فئة اتبعت وصايا الإنجيل وما فيه من الفضائل الخيّرة، وفئة أخرى تحالفت مع اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] هؤلاء

(١) المشكاة: كوّة في الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح ونحوه، والمراد أن القرآن والإنجيل كلام الله وأنهما من مصدر واحد.

المسيحيون تديّنوا عن عصبية وهم الذين وقفوا مع اليهود في وجه الدعوة الإسلامية حرصاً على كيانهم من الزوال. واليوم نرى ذلك في بعض الدول التي تدين بالمسيحية وتتحالف مع اليهود ضد الحق العربي المسلم في فلسطين.

ويتابع القرآن فيذكر ما قاله هؤلاء الذين استمعوا إلى القرآن وفاضت أعينهم من الدمع: **﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾** الاستفهام هنا إنكاري فيه معنى التعجب، فهو بمعنى النفي من أن يحدث منهم عدم الإيمان، لأن موجب الإيمان قد وجد بعد استماعهم للقرآن الذي وجدوا فيه الحق **﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾** وهم يطمعون أن يُدخلهم ربهم مع القوم الصالحين وهم أمة محمد ﷺ الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فكافأهم الله على حُسْنِ إيمانهم جنات تجري من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار **﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾** أي ماكثين فيها أبداً، وذلك العطاء الرباني والنعيم المقيم الذي منحه الله لهم هو جزاء إحسانهم، وذلك بسبب فعلهم الشيء الحسن من الإيمان بالله وما نزل من الحق، وليس هذا الثواب قاصراً عليهم بل يعمّ كل من أحسن إحسانهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ والذين كفروا وجحدوا الحق وكذبوا بآيات القرآن هم أصحاب النار وسكانها المقيمون فيها ولا يفارقونها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

شرح المفردات

ولا تعتدوا: ولا تتجاوزوا الحلال إلى فعل الحرام.

النهي عن تحريم ما أحلّ الله من الطيبات

وبعد أن أثنى الله على القسيسين والرهبان الذين رضخوا إلى الحق عند سماعهم آيات القرآن تتلى عليهم، بيّن القرآن في الآيات التالية أن الرهبانية وما فيها من تقشف وحرمان لا يوجبها الإسلام ولا يلزم بها المسلمين، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُم﴾ ويعني بالطيبات اللذيذ من الأطعمة التي تستطيبها وتشتهيها النفوس، أي لا تحرّموا أيها المؤمنون على أنفسكم الطيّبات التي أحلّها الله لكم كما فعل الرهبان من النصارى وغيرهم من الملل فحرّموا على أنفسهم النساء والمآكل الطيبة والمشارب اللذيذة وحبسوا أنفسهم في الصوامع، فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك **﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** مما يلفت النظر في هذا النص القرآني أن الله سمى حرمان النفس مما أحله الله من الطيبات تجاوزاً للحدود التي رسمها الله في

الحلال والحرام، والله لا يحب من يتعدى حدوده.

وقد رُوي أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ رفضوا التزوج بالنساء وأكل اللحم وأرادوا أن يتخذوا من الصوامع مسكناً لهم، فلمّا بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «ليس في ديني ترك النساء واللحم، ولا اتخاذ الصوامع»[١].

وجاء في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها، أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب[٢] عن سُنَّتي فليس مني[٣].

فالإسلام حدد للمسلمين السلوك الذي يجب أن يراعوه من تلبية رغباتهم الجنسية في حدود الرابطة الزوجية، كما أباح لهم المآكل الطيبة المغذية لسلامة أجسادهم ونشاط عقولهم، فإن العقل السليم في الجسم السليم.

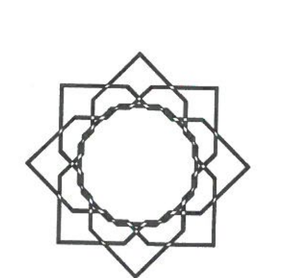
﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ أي كلوا ـ أيها المؤمنون ـ من رزق الله الحلال الطيب، وقد وصف الله الرزق بأن يكون طيباً أي يكون كسبه من طريق حلال لا خبث فيه، لأن الطعام يكون خبثاً إذا

(١) رواه الطبري في تفسيره.
(٢) رغب: أعرض عن شيء وتركه.
(٣) متفق عليه.

اكتسب من الربا والمال الحرام والرشوة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الذي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي خافوا ربكم ـ أيها المؤمنون ـ من أن تتعدوا حدوده فَتُحِلّوا ما حرّم عليكم وتجعلوه حلالاً لكم وتحرموا ما أحلّ الله لكم فتجعلوه حراماً، واحذروا أن تخالفوه في ذلك فينزل بكم سخطه وتستوجبوا عقوبته، فالتزموا حدود الله إن كنتم بوحدانيته مقرّين، وبربوبيته مصدّقين، وقد قرن الله التقوى بالإيمان، لأن الإيمان بالله يقتضي التقوى.

وإذا كان الإسلام أباح الطيبات فإنه حرّم الإسراف فيها بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

كما أن الله طلب من عباده أن يقوموا بالشكر على نعمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].



﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

شرح المفردات

الأيْمان: جمع يمين وهو القَسَم والحلف.

باللغو في أيْمانكم: الحلف من غير قصد القَسَم.

عقدتم الأيمان: توكيد القَسَم بالقصد والتصميم.

فكفارته: أي الأعمال الصالحة التي تمحو بعض الذنوب، أو ترفع إثم الإخلال بالقسم.

من أوسط ما تطعمون أهليكم: الأوسط المعتدل من كل شيء والمراد هنا الأغلب من الطعام الذي يأكله الناس.

تحرير رقبة: إعتاق رقيق من العبودية إلى الحرية.

كفّارة اليمين

وبعد أن نهى الله المؤمنين عن تحريم الطيبات على أنفسهم بيّن الله حُكْمَ القَسَم وكيفية التحلّل منه إذا حصل، قال تعالى:

﴿لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ في أَيْمَانِكُمْ﴾ أيْمان: جمع يمين وهو الحلف والقَسَم، وسبب نزول الآية: أن بعض المسلمين حرّموا طيبات



المطاعم والملابس والنساء على أنفسهم وحلفوا على ذلك، فلما نزلت الآية ﴿**لا تُحرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُم**﴾ قالوا: كيف نصنع بأيماننا - أي بما أقسمنا به - فنزلت الآية ﴿**لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾ أي لا يؤاخذكم الله ولا يلومكم إذا صدر منكم القَسَم على سبيل اللغو ولا كفارة فيه.

واللغو لغة: هو ما لا يعتدّ به من كلام وغيره ولا يحصل منه على نفع، واللغو في اليمين - أي في القَسَم - الحلف من غير قصد ولا نية.

ويمين اللغو على أنواع، منها:

قول الحالف: لا والله، بلى والله في حديثه على سبق اللسان من غير قصد.

ومنها: أن يحلف الرجل على شيء يظن أنه صادق فيه ثم يتبيّن له خلاف ذلك.

ومنها: ما يحصل عند التبايع فيقول أحد الرجلين: والله لا أبيعك بكذا وكذا، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا وبكذا، فهذا من اللغو الذي لا يُؤاخذ به.

ومنها: أن تحلف وأنت غضبان.

ومنها: أن تحلف على فعل الحرام، فلا مؤاخذة بتركه ولا كفارة فيه.

ومنها: أن يقول الرجل: والله ما فعلت وقد فعل، أو يقول: والله لقد فعلت كذا وكذا ولم يفعله، متعمداً الكذب فهو آثم ولا كفارة عليه.

ثم يقول سبحانه: ﴿**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ**﴾ أي ولكن الله يلومكم ويعاقبكم في الآخرة بما يصدر عنكم من اليمين التي أكدتموها بالقصد والتصميم والعزم ولم تقوموا بالوفاء بما أقسمتم عليه[١]، فإذا أردتم أن ترفعوا الإثم عن هذا القسم، ورأيتم أن تنفيذه سيحرمكم خيراً كثيراً فباستطاعتكم أن تنقضوا اليمين وتبذلوا في مقابل ذلك كفّارة[٢] لما أقسمتم عليه، وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى خيراً منها، إلاّ كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»[٣].

وكفارة اليمين على أنواع ذكرها القرآن فيما يلي:

﴿**فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ**﴾ أي كفارة اليمين هي إطعام عشرة مساكين تغديهم وتعشيهم من غالب قوت البلد. والمراد بالأوسط أي في القيمة فلا يكون غالياً من أعلى الموجود ولا زهيد الثمن من أردأ الموجود، وليس هو أقل ما يأكله أهل البلد ولا هو أكثر بل يكون وسطاً في ذلك، ولا يجوز أن يطعم غنياً ولا قريباً له من ذوي الأرحام تلزمه نفقته.

وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام بدلاً من إطعام

(١) كأن يحلف الرجل ويقول: والله لا أفعل كذا وكذا فيفعل، والرجل يقول: والله لأفعلن كذا وكذا فلا يفعل.

(٢) الكفّارة: هي ما شرعه الله من وجوه البر كالصدقات والصوم وعتق الرقيق، يفعل ذلك من لم يستطع الإيفاء: بما أقسم عليه. وسميت كفارة لأنها تمحو الخطيئة والذنب وتسترهما، لأن أصل معنى الكفر بفتح الكاف التغطية والستر. هذا وقد حدد الإسلام لبعض الخطايا كفارات يفعلها المسلم للتخلص منها ومحوها.

(٣) أخرجه مسلم.

عشرة مساكين في يوم واحد، كما أجاز إخراج قيمة الكفارة من المال وإعطاءها للمساكين العشرة أو للمسكين الواحد مقابل عشرة أيام ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي وكما يجوز أن تكون الكفارة طعاماً يجوز أن تكون كسوة لعشرة مساكين، والكسوة تختلف باختلاف البلاد والأزمنة، والكسوة أدناها ثوب واحد لكل مسكين أو عباءة، أو يعطي لكل مسكين من المساكين العشرة من الكسوة ما يصح أن يصلي فيها أو قيمة كل كساء من المال لكل مسكين كما أجاز ذلك أبو حنيفة.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ومن الكفارة عتق إنسان من الرق ذكراً أو أنثى مقابل أن يحنث[1] في يمينه، واشترط بعض الفقهاء أن تكون النفس المسترَقّة مؤمنة، وأجاز أبو حنيفة عتق النفس الكافرة، وهذا يبيّن لنا حرص الإسلام على تحرير الأرقاء ـ أي العبيد ـ من الرق في زمن كان فيه الرق شائعاً.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي فمن عجز عن الإتيان بواحدة من الثلاث المتقدمة: الإطعام أو الكسوة أو تحرير رقبة فعليه أن يكفِّر عن يمينه بصوم ثلاثة أيام متتابعات عند أبي حنيفة، ولا يشترط التتابع عند الشافعي وغيره من الفقهاء، كما يشترط أن ينوي الصيام من الليل ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي ذلك كفَّارة اليمين إذا حلفتم بالله ثم حنثتم ولم تقوموا بالوفاء بما حلفتم به ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي قللوا من الحلف، فلا تحلفوا إلا لإحقاق حق أو دفع باطل وقوموا بالوفاء بما حلفتم به ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

(١) حنث الإنسان في يمينه: لم يفِ بما أقسم عليه من فِعْلٍ أو تَرْكٍ.

آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل ذلك البيان الشافي في أحكام الكفارة يبيّن الله لكم أحكام دينكم فيوضحها لكم لتقوموا بشكره على ما أرشدكم إليه من تشريعات نافعة.

والحلف لا يكون إلا باللَّهِ، أو باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته كما أن الحلف لا يكون إلا بالله لقول النبي ﷺ: من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت[1].

والقسم الكاذب المتعمد يسمى في الشرع الإسلامي: اليمين الغموس، وسميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم يوم القيامة وهي من كبائر الذنوب التي ورد فيها الوعيد على فاعلها.

وقد جاء في الحديث الشريف: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ ـ أي كبائر الذنوب ـ قال النبي ﷺ: الإشراك بالله، قال الأعرابي: ثم ماذا؟ قال: عقوق الوالدين، قال: ثم ماذا؟ قال النبي ﷺ: اليمين الغموس، قال: وما اليمين الغموس؟ قال: التي يقتطع[2] بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب[3].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه ـ أي بما حلف ـ فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة..»[4].

ومن يحلف كاذباً متعمداً فعليه رد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب على يمينه ضياع حق ثابت، وعليه أيضاً الكفارة المبينة في الآية.

(١) متفق عليه.
(٢) يقتطع: يمنعه من حقه.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه مسلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

شرح المفردات

المَيْسِر: القمار.

الأنصاب: هي حجارة حول الكعبة كانوا يذبحون قرابينهم عندها.

الأزلام: هي سهام من الخشب كانوا يقترعون بها قبل القيام بأي عمل، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي والثالث خلو من الكتابة.

رجس: الرجس هو كل ما يستقذر حساً أو معنى.

فهل أنتم منتهون: استفهام إنكاري بمعنى انتهوا.

فإن تولّيتم: فإن أعرضتم عن الإيمان.

جناح: إثم وذنب.

فيما طعموا: فيما تناولوه من الخمر قبل التحريم.

تحريم الخمر والقمار

وبعد أن نهى الله عن تحريم ما أحل من الطيبات لعباده، وكان من جملة الأمور المستطابة عند العرب الخمر والقمار، بيّن الله في الآيتين التاليتين أنهما غير داخلتين في الأمور التي أحلها الله، بل هما محرّمتان وذلك بسبب ما ينشأ عنهما من الأضرار، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّما الخَمْرُ﴾ حرّم الله في هذه الآية الخمر وهي ما أسكر من عصير كل شيء، وسُمِّيَتِ الخمر خمراً لأنها تخمر العقل وتستره.

والخمر في تعريف أكثر الفقهاء: كل ما أسكر قليله أو كثيره سواء اتُّخِذَ من العنب أو التمر أو الحنطة أو الشعير أو غيرها. وتشمل الخمر ما يعرف اليوم باسم الويسكي والشمبانيا والفودكا والبيره وغيرها. وقد قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام»[١].

ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «كل شراب أسكر فهو حرام»[٢].

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن المسكر حرام قلّ أو كَثُر، سكر منه شاربه أو لم يسكر. وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[٣].

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

وتحريم الخمر ينطبق على جميع المخدرات مثل الأفيون والحشيش والقات والكوكايين والهيرويين لأن لها نفس التأثير، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه: «نهى عن كل مسكر ومُفَتِّر[1]»[2].

وقد شدّد رسول الله ﷺ من التنفير من الخمر بقوله: «لَعَنَ الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها»[3].

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ وكما حرّمت الآية الخمر حرمت كذلك المَيْسر وهو القمار، وقد اختار الله هذا الاسم من اليُسر ولم يسمه المعسر، ذلك أن أحداً لا يُقبل على القمار وهو يظن أنه يخسر لذلك جاء بالاسم الذي يعبّر عن حالة اللاعب للقمار. والمَيْسر هو كل ما يتراهن فيه الناس من معاملة فيها قصد الكسب المطلق أو الخسارة دون عمل، ومن المَيْسر أوراق اليانصيب والرهان في سباق الخيل. فالكسب الحاصل من الميسر هيّن على المقامر، لذا يبدّده أو ينفقه فيما لا ينفع، فالكسب ليس له والخسارة محسوبة عليه. والقمار يعطل الرغبة في العمل لكسب الرزق ويجعل المقامر يعيش في أوهام الربح السريع.

﴿والأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ﴾ والأنصاب هي حجارة مقدسة عند عرب الجاهلية يذبحون عليها القرابين المقدمة للأصنام، وقيل: هي الأصنام. والأزلام مر الكلام عنها في الآية الثالثة من هذه السورة.

---

(١) المفتّر: كل شراب يورث الفتور والخدر في الأعضاء والخمول.

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

والأنصاب تقوم على تقديس أحجار معينة فإن كانت للذبح عليها وتقديم القرابين إلى الأصنام فهي لون من الشرك بالله، وإن كانت نصبت للعبادة فهي شرك صريح بالله سبحانه.

ثم عقّب القرآن على الخمر والقمار والأنصاب والأزلام قوله **﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾** والرِّجس يطلق على الأشياء القذرة والنجسة، ومعنى كونها من عمل الشيطان أي أن الأنصاب والأزلام والخمر هي من وسوسة الشيطان فكأنه هو الذي عملها وفي ذلك تنفير لمتعاطيها بأنه يعمل عمل الشيطان.

وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخمر نجسة نجاسة مغلظة كالبول والدم لثبوت حرمتها وتسميتها رجساً، بينما ذهب البعض الآخر منهم ربيعه شيخ مالك والصنعاني والشوكاني، والمزني وهو من أصحاب الشافعي إلى طهارتها، وحملوا الرجس في الآية على النجاسة المعنوية **﴿فَاجْتَنِبُوهُ[1] لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** أي اجتنبوا الأمور التي نهاكم الله عنها أي اجعلوها في جانب وأنتم في جانب لترجوا الفوز والفلاح، لأن مجالسة الشاربين للخمرة والمقامرين لا يتحقق فيها الأمر بالاجتناب،

---

(١) تجري على ألسنة البعض كلمات تشكك في تحريم الخمر، فيزعمون أن الله سبحانه لم يقل الخمر حرام، بل قال: اجتنبوه، واجتنبوا كما يقولون لا تدل على التحريم كدلالة كلمة «حرمت» والجواب على ذلك: إن كلمة «اجتنبوه» أدل على التحريم من «حرمت» لأن اجتنبوه أي اطرحوه جانباً أي أنه حرام فيجب اجتنابه. ومن جهة أخرى فإن القرآن قرن تحريم الخمر بتحريم الأوثان في قوله تعالى: **﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب﴾** والأنصاب هي الأوثان فجعل حرمة الخمر كحرمة الأوثان لأنه قرنها بها في تعبير واحد. ومعلوم أن حرمة الأوثان هي أكبر حرمة حرمها الإسلام ويؤيد هذا أن كلمة اجتنبوه جاءت في موضع آخر في تحريم الأوثان قال الله تعالى: **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾** [سورة الحج].

فالاجتناب يتضمن النهي عن دخول الحانات التي تُعاقر فيها الخمرة ويدار فيها القمار ومن حام حولها يوشك أن يقع فيها.

ثم ذكر الله سبحانه بأن للخمر والقمار مفسدتين، أُولاهما دنيوية والثانية دينية **﴿إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ في الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ﴾**.

فالشيطان يريد بوساوسه أن يُوقع العداوة والبغضاء بين بعضكم البعض عن طريق شرب الخمر، ذلك أن شارب الخمر يسكر فيفقد العقل الذي كان يمنعه من الأقوال والأعمال القبيحة فعندها يسيء إلى الناس دون أن يكون عنده رغبة حقيقيّة في ذلك ويسرع إليه الغضب بالباطل، وبذلك تكون الخمر سبباً للإساءة إلى الآخرين بالمشاجرة والخصام وما يستتبع ذلك من أحقاد وبغضاء.

والميسر وهو القمار مجلبة للعداوة والبغضاء فإن ربح المقامر لا يقوم إلا على خسارة الغير، فالمقامر مغتصب مال الغير على مرأى منه، وكلما أوغل الإنسان في الخسارة كلما اشتد بغضه للرابح الذي يسلبه ماله في لحظات قليلة، وكثيراً ما يتمادى لاعب القمار في الخسران حتى يفقد كل ماله فيؤدي به ذلك إلى عدم السيطرة على نفسه، فيتعرض للرابح بالشتم ويضمر له كل شر وربما انتهى ذلك بالشجار والخصام.

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُونَ﴾ والخمر تصد عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة لأن السكران لا عقل له كاملاً ولا وعي حتى يذكر به ربه ويثني على نعمه، ويعبده عبادة مبنية على التعقل والتفكر والإحساس المرهف، ولا تتحقق عبادة الله إذا سكر الإنسان.

كما أن القمار يصد عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة، فالمقامر تتوجه جميع قواه العقلية إلى اللعب الذي يرجو منه الربح ويخشى الخسارة ويستغرق في ذلك أوقاتاً طويلة تنسيه ذِكْرَ خالقه وتلهيه عن أداء الصلاة التي تسمو بروحه وتقرّبه إلى خالقه.

ثم ختم الله الكلام عن الخمر والقمار بقوله: **﴿فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُونَ﴾** أي إذا كنتم قد علمتم ما في الخمر والميسر من مضارّ وما يسببان من عداوة وبغضاء بينكم، أفأنتم منتهون بعد ذلك عنهما تاركون لهما؟ أم أنتم باقون على غيّكم وضلالكم؟ والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ ومؤدّاه: انتهوا عما أنتم عليه.

ولما علم عمر رضي الله عنه أن هذا وعيد شديد وزجر زائد على معنى انتهوا قال: انتهينا يا رب. ثم أمر النبي ﷺ مُنَادِيَه أن يُنادي في طرق المدينة ألا إن الخَمْرَ قد حرّمت... فكُسرت أوانيها بعدما أريقت حتى جرت في طرق المدينة.

ثم أكد الله هذا التحريم بقوله: **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ واحْذَرُوا﴾** أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به وما نهيا عنه واحذروا مخالفتهما **﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُم﴾** فإن أعرضتم عن طاعة الله ورسوله **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبِينُ﴾** أي فاعلموا أن الرسول محمداً عليه تبليغ رسالة الله وتأدية الأمانة وليس مسؤولاً عن عصيانكم. وفي ذكر **﴿رسولنا﴾** مضافاً إلى الله تشريف للنبي ﷺ.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ هذا النص القرآني يبيّن حُكْمَ الذين كانوا يتعاطون شرب الخمر قبل

تحريمها، فقد قال ناس من أصحاب الرسول ﷺ: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فقال سبحانه: ليس على الذين آمنوا وعملوا صالح الأعمال إثم وعقوبة فيما شربوا الخمر قبل تحريمها، وكلمة ﴿طَعِمُوا﴾ تطلق على تناول المشروب والمأكول ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إذا اتقوا الله بخشيته والعمل بطاعته وآمنوا بما نُزِّل من عند الله من الأحكام وعملوا الأعمال الصالحة ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ ثم انتهوا عن الخمر والميسر بعد التحريم وثبتوا على تقوى الله في ذلك والإيمان به، والعطف بثمّ يفيد الاستمرار والدوام على الحالة المذكورة ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ والمقصود من تكرار التقوى التأكيد والمبالغة في الحث على الإيمان والتقوى وضم الإحسان إليهما. والإحسان يأتي بمعنى الإنعام على الغير، كما يأتي بمعنى العمل الحسن وهو أن يعملوا بما فرضه الله عليهم من العبادات والأعمال الصالحة ويزيدوا عليها بما ذاقوا من حلاوة الإيمان «فالمحسن هو من عشق التكليف من الله وعرف منزلة القرب من الله فوجد أنَّ الله قد كلّفه دون ما يستحق ـ سبحانه ـ مِنّا فزاد من العمل الذي يزيده قُرْباً من الله»[1] كما أن من الإحسان الاستغراق في عبادة الله، وفي الحديث الشريف عندما سئل رسول الله ﷺ عن الإحسان، فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2] ثم يختم الله الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفي هذا إشادة بالإحسان ومنزلة المحسنين عند ربهم حيث خصهم بحبه، وهي أقصى مرتبة يطمح المؤمن بالوصول إليها.

---

(١) نقلاً عن تفسير الشعراوي.

(٢) أخرجه البخاري.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)﴾

شرح المفردات

ليبلونكم: ليختبرنكم.

بشيء من الصيد: ما صِيدَ من حيوانات البر الوحشية ومن الطيور.

تناله أيديكم ورماحكم: يراد به كثرته وسهولة اصطياده.

وأنتم حرم: أي وأنتم محرمون بحج أو عمرة.

من النّعم: وهي الإبل والبقر والغنم.

ذوا عدل: رجلان عادلان.

هدْياً بالغ الكعبة: يُهدى إلى الحرم ويذبح فيه للتوسعة على الفقراء.

أو عدل ذلك صياماً: أو عليه ما يعادل ذلك الطعام صياماً.

ليذوق وبال أمره: ليذوق جزاء شر عمله.

كفّارة صيد البر لمن استحله وهو محرم أو في الحرم

وبعد تحريم الخمر والقمار يأتي تحريم الصيد في حال الإحرام أو في الحرم، والإحرام هو أن يلبس الشخص ثياب الإحرام ناوياً القيام بشعائر الحج أو العمرة والدخول في حرماتها من نسك ومحظورات،

ومن بينها الامتناع عن صيد البر. والحرم هو مكة وما حولها حيث حرّم الله فيها كثيراً مما ليس بمحرّم في غيرها كالصيد وقطع النبات ونحوهما، وهذا كله ليعيش الإنسان المؤمن في سلام ووئام مع أخيه الإنسان وحتى مع الحيوان، حتى يتفرغ القلب للخالق وتصفو النفس فلا تتعرض لأذى الغير. قال تعالى:

﴿يَاأَيُّها الَّذِين آمَنُوا لَيَبْلُونَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ فالله سبحانه يخاطب المؤمنين بأنه سيختبرهم وهم في حالة الإحرام بشيء من الصيد، وكلمة **﴿بِشيْءٍ﴾** فيها معنى التقليل والتصغير، أي أن هذا الاختبار لا يتضمن المشقة الكبيرة التي يكون فيها التكليف صعباً، وإنما هو تكليف واختبار سهل **﴿تَنَالُهُ أيديكُم وَرِمَاحُكُمْ﴾** فما تناله الأيدي من الصيد هو الفراخ، وما لا يستطيع أن يفرّ من صغار الصيد، وأما ما تناله الرماح فهو كبار الصيد مثل حمر الوحش والظباء **﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالغَيْبِ﴾** وعِلْمُ الله هنا مجاز لأنه سبحانه عالم بالماضي والحاضر والمستقبل، أي ليتميز من يخاف الله وهو لم يره ممن لا يخافه، وأن الذي ينجح في ذلك الامتحان يكون ممن يخاف الله تعالى في غيبه عنه **﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** والاعتداء تجاوز الحد ومخالفة أوامر الله تعالى، أي فمن اصطاد منكم بعدما أعلمكم الله بذلك، فله عذاب شديد الإيلام في الآخرة بسبب عصيانه لله تعالى.

وسبب نزول هذه الآية هو أن المسلمين حينما كانوا يؤدون العمرة التي أُطلق عليها عُمرة الحديبية ابتلاهم الله بالصيد فكانت الوحش والطير التي تصاد تغشاهم في رحالهم مما لم يروا مثله قط فيما مضى،

فنهاهم الله عن قتلها وهم في حالة الإحرام. ومن المعروف عن العرب حبهم للصيد وولعهم به لذا امتحن الله المؤمنين واختبرهم ليرى: هل سينقادون إلى شهوة الصيد مخالفين أوامر الله أم أنهم سيلتزمون طاعته؟

﴿يَاأَيُّها الَّذين آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ والصيد المنهي عن قتله هو كل حيوان يؤكل لحمه لأن الذي يحرم أكله ليس بصيد وإلى هذا ذهب الأئمة الشافعية. أما الأئمة الحنفية فيرون أن الصيد المحرّم قتله هو كل حيوان متوحش سواء أكان مأكولاً أم غير مأكول.

وفي الحديث الشريف: «خمس فواسق يُقتلن في الحلّ والحرم: الغراب والحدأة، والعقرب والفأرة والكلب العقور»[(١)] وقد ألحق مالك وأحمد بالكلب العقور: الذئب والسبع والنمر والفهد لأنها أشد ضرراً منها.

وفي قوله تعالى **﴿وَأَنْتُم حُرُمٌ﴾** قيل: المراد به وأنتم محرمون بالحج. وقيل: المراد به: وقد دخلتم بالحرم، وقيل: هما مرادان بالآية. فالمُحرم ممنوع من الصيد مطلقاً داخل الحرم وخارجه، وغير المُحرم ممنوع من الصيد داخل الحرم.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُم مُتَعَمِّداً﴾ ذكر الله سبحانه المتعمد في وجوب الجزاء خاصة وللتوضيح فإن الذي يقتل الصيد ثلاثة أقسام: متعمد ومخطىء وناسٍ، فالمتعمد هو القاصد للصيد مع العلم أنه في حالة الإحرام، والمخطىء هو الذي يقصد شيئاً فيصيب صيداً خطأ، والناسي هو الذي يتعمد الصيد ولكنه لا يذكر أنه في حالة الإحرام، وقد ذكر جمهور من الصحابة أنه يجب عليه الكفارة في العمد والخطأ

(١) متفق عليه.

والنسيان، وذهب الطبري وأحمد في إحدى روايتيه إلى أنه لا شيء على المخطىء والناسي ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي فعلى الصائد أن يؤدي نظير الصيد الذي صاده كفارة تماثل ما قتله من النعم: وهي الإبل والبقر والغنم، واختلف الصحابة في هذه المماثلة: هل تكون في الخلقة أم بالقيمة؟ والذي عليه جمهور الصحابة ومن بعدهم من العلماء أن المماثلة تكون في الخلقة أي في الحجم والمنظر، فحكموا في النعامة بناقة وهي لا تساوي ناقة، وحكموا في حمار الوحش ببقرة وهو لا يساوي بقرة، وفي الظبي شاة.

وقيل المراد بالمثل: قيمة الصيد المقتول ـ يقوّم في المكان الذي صِيد فيه أو في أقرب الأماكن إليه ويراعى زمان القتل في التقدير.

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي يقضي بالمماثل للمقتول من صيد الحرم رجلان عدلان من المؤمنين من أهل الدين والفضل والمعرفة ﴿هَدْياً بالِغَ الكَعْبَةِ﴾ أي أن جزاء الصيد الذي يحكم به الرجلان العدلان يكون هدية من الصائد تبلغ الحرم المكي فتذبح هناك ويتصدق بلحمها على مساكين الحرم، والمراد بالكعبة في الآية الحرم ـ أي مكة وما حولها ـ ولم يقصد الكعبة بعينها فإن الهدي لا يبلغها إذ هي في المسجد، وإنما خُصَّت الكعبة بالذكر تعظيماً لها.

﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِياماً﴾ ذهب جمهور العلماء إلى أن كلمة ﴿أو﴾ في الآية للتخيير، فالجاني مخير بين هذه الأنواع التي ذكرتها الآية إن شاء ذبح ما يماثل الصيد المقتول من الأنعام ويتصدق به على مساكين الحرم، وإن شاء قوّم المثل دراهم

والدراهم طعاماً بحيث يعطي لكل مسكين نصف صاع[١] من القمح أو صاعاً من غيره كما ذهب أبو حنيفة أو يعطي لكل مسكين مُدًّا[٢] من الطعام كما ذهب الشافعي، أو يكون عليه أن يصوم ما يعادل هذا الطعام صياماً بأن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وما قلّ عن طعام المسكين يصوم عنه يوماً كاملاً ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ الوبال: الثِّقَل والشدة، أي شرع الله هذا الجزاء على قتل الصيد ليذوق القاتل جزاء ذنبه وسوء عاقبته وثقل فعله ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي عفا الله عما سبق لكم من قتل الصيد قبل تحريمه ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي ومن عاد إلى قتل الصيد بعد تحريمه فإن الله يعاقبه على ما ارتكب ﴿واللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ والله سبحانه هو القوي الغالب لا يمنعه مانع من الانتقام ممن عصاه في الآخرة.

أما الكفارة فقد أوجبها جمهور الفقهاء على العائد إلى قتل الصيد، ويتكرر الجزاء له كلما كرر الصيد في الحرم.

---

(١) الصاع عند جمهور العلماء يساوي ٢,٠٤ كلغ.

(٢) المد عند جمهور العلماء يساوي ٥١٠غ.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

شرح المفردات

وللسيّارة: وللمسافرين منكم.

ما دمتم حُرُماً: ما دمتم محرمين.

الذي إليه تحشرون: أي تجمعون وتساقون إليه يوم القيامة للحساب.

قياماً للناس: ما يقوم به أمر الناس ويصلح شأنهم في دينهم ودنياهم.

والشهر الحرام: (ال) في الشهر للجنس أي أشهر الحرم الأربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب.

والهدي: ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام قربةً إلى الله للتوسعة على فقراء الحرم.

والقلائد: الإبل التي تقلد بلحاء الشجر أو غيرها ليُعلم أنها هدي.

تحليل صيد البحر

بعد أن حرّم الله صيد البر لمن كان في الإحرام، وكذلك في الحرم بيّن الله حكم صيد البحر للمحرمين بقوله:

﴿أُحِلَّ لَكُم صَيْدُ البَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ أي أُحِلّ لكم ـ أيها المؤمنون ـ صيد البحر والمراد بالبحر ما يشمل المياه المالحة كالبحار أو العذبة كالأنهار والبحيرات، كما أحل الله لكم أكل ما صدتموه منه، أو بما قد قذفه البَحْر على الشاطىء أو طفا على وجه الماء، وفي الحديث الشريف عن البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[1]. واستثنى بعض العلماء صيد الضفدع لما روي عن النبي ﷺ «أنه نهى عن قتل الضفدع وقال: نقيقها تسبيح»[2] **﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾** أي ينتفع بهذا الصيد المقيمون والمسافرون **﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُم صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُم حُرُماً﴾** وحَرَّمَ الله عليكم ـ أيها المؤمنون ـ اصطياد حيوان البر أو طيره والأكل منه ما دمتم في حالة الإحرام. وقد اختلف العلماء فيما يأكله من كان في حالة الإحرام من الصيد إذا اصطاده غيره، فذهب قوم إلى أنه لا يحل ذلك بحال، وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يصده بنفسه، ولا صِيد بناء على طلبه، ولا بإشارته ولا أعان عليه غيره **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** واخشوا الله ـ أيها المؤمنون ـ واحذروا غضبه بطاعته فيما أمركم به فلا تستحلوا الصيد في حال الإحرام ولا في الحرم **﴿الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** فهو سبحانه إليه مصيركم ومرجعكم فيعاقبكم على معصيتكم أمره ويثيبكم على طاعتكم له.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ﴾ أي حكم الله بأن تكون الكعبة بيت الله الحرام، وسُمّي بذلك إيذاناً بحرمته وتعظيماً له **﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾**

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه النسائي.

وأن يكون سبباً لقيام مصالح الناس وما به صلاحهم في دينهم ودنياهم، أما في دينهم فإنهم يحجون إليه ويتجهون إليه في صلاتهم، وأما في أمر دنياهم فإن الله جعله ملاذاً للناس، ومن دخله كان آمناً من المخاوف بسبب حُرمة التعرض له وحرمة القتال فيه، كما أنه تجبى إليه ثمرات كل شيء من بقاع الأرض على يد الحجاج الذين يقصدونه لعبادة الله.

﴿والشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ﴾ هذه الثلاث معطوفة على الكعبة وأنها سبب لقيام مصالح الناس، والمراد بالشهر الحرام جنس الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب، ومعنى كون هذه الأشهر قِياماً للنّاس هو أن العرب كانوا يتقاتلون في سائر الأشهر ويُغير بعضهم على بعض حتى إذا أهلّت هذه الأشهر الأربعة كفوا عن القتال، وزال الخوف والفزع من قلوبهم، وباشروا الأسفار للتجارة آمنين على أنفسهم وأموالهم.

وكذلك جعل الله الهدي قياماً للناس، وهي الأنعام التي تُهدى إلى الكعبة وتذبح في الحرم ويوزع لحمها على المساكين فيكون ذلك نسكاً لمن قام بإهدائها وثواباً له وقواماً لمعيشة الفقراء.

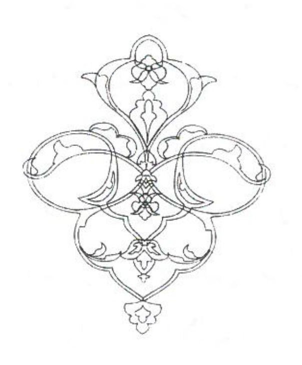
وكذلك القلائد وهي الهدي من الأنعام التي تُقلّد بعلامات من لحاء الشجر أو الجلد وغير ذلك إشعاراً بأنها هَدْيٌ إلى الله فلا يتعرّض لها أحد بسوء، وقيل: المراد بها البُدن[1] خُصّت بالذكر لأن الثواب فيها

(١) البُدنُ: النوق، جمع ناقة.

أكثر وهي في هذا قياماً لمعيشة الفقراء والمساكين **﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ﴾** أي جعل الله تلك الأمور التي مَرّ ذِكرُهَا قياماً للناس وبها صلاحهم ليعلموا أن الله يعلم عِلْماً شاملاً لما في السماوات والأرض **﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** وأنه سبحانه من خلال علمه الشامل يشرّع من الأحكام ما تصلح به أمور الناس.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ أي أن الله شديد عقابه لمن انتهك حرماته وانتهك حدوده **﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** وأن الله واسع المغفرة والرحمة لمن تاب ورجع إليه بالطاعة.

﴿مَا عَلى الرَّسُولِ إلاّ البَلاغُ﴾ هذا النص يفيد أن الرسول محمداً عليه تبليغ رسالة الله إلى الناس وأنه بلّغ رسالة الله فلا تَبِعَةَ عليه بعد ذلك، ولا عُذر لأحد بعد هذا التبليغ بالإعراض عما بلّغ الرسولُ والإصرار على الكفر، ثم يَعْقُب ذلك ثواب الله لمن أطاعه وعقاب الله لمن عصاه **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾** والله يعلم ما يظهر من الناس من أعمال وأقوال، ويعلم ما تخفيه نفوسهم ويسرونه في قلوبهم من كفر ونفاق.



﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

شرح المفردات

لا يستوي: لا يتساوى.

الخبيث والطيب: الحرام والحلال والجيد والرديء.

ولو أعجبك: ولو سرّك.

يا أولي الألباب: يا أصحاب العقول.

إن تبد: إن تظهر.

نهي المؤمنين عن الأسئلة التي تؤدي إلى الإضرار بهم

وبعد أن حذّر الله الناس من معصيته ورغب في طاعته أتبع ذلك بوصف المعصية بصفات تنفر منها النفوس، قال الله تعالى:

﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الخَبِيثُ والطَّيِّبُ﴾ أي قل لهم يا محمد لا يتساوى ولا يتماثل الخبيث والطيّب. والخبيث هو الأمر المستقذر الذي تعافه النفوس والطبائع السليمة ويكون سبب الحصول عليه خبيثاً، والطيّب هو ما يكون حَسَناً في ذاته وفي طريق كسبه، وترضاه النفوس المستقيمة، وهو ما جاءت به الشرائع الإلهية.

وفي كتب التفسير: الخبيث والطيب هما: المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والرديء والجيد، كما أن الخبيث والطيب يشمل المكاسب من الأموال والأعمال والمعارف من العلوم وغيرها.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: الخبيث والطيب قسمان: أحدهما الذي يكون جسمانياً وهو ظاهر لكل أحد، والثاني الذي يكون روحانياً، وأخبث الخبائث الروحانية: الجهل والمعصية، وأطيب الطيّبات الروحانية: معرفة الله تعالى وطاعته، وذلك لأن الجسم الذي يلتصق به شيء من النجاسات يصير مستقذراً عند أرباب الطبائع السليمة، فكذلك الأرواح الموصوفة بالجهل والإعراض عن طاعة الله تصير مستقذرة عند الأرواح الكاملة المقدسة.

فالخبيث والطيب لا يتساويان **﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ﴾** أي ولو أثار عجبك واسترعى نظرك كون الخبيث كثيراً. إن الشر مهما يكثر لا يمكن أن يُستحسن شرعاً، أو ترضى به النفوس السليمة، ولا يمكن للشرّ أن يُصبح بالكثرة مساوياً للخير.

وهنالك فرق بين شريعة الله وقوانين الناس، فإن قوانين الناس تستمد قوتها من الكثرة ولو كانت فاسدة، أما شريعة الله فهي للخير المحض **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولي الأَلْبَابِ﴾** فاتقوا الله يا أصحاب العقول الراجحة فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ولا تغترّوا بكثرة المال الخبيث، ولا بكثرة أهل الباطل، فالله يريد منكم استعمال عقولكم للتمييز بين الخبيث والطيّب وعدم الانجرار إلى أهل الباطل **﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** لتفوزوا بثواب الله يوم القيامة.

ثم ينتقل القرآن إلى نهي المؤمنين عن سؤال رسول الله ﷺ عن حكم من أحكام الدِّين الذي سكت عنه لئلا يؤدي ذلك إلى تكاليف يشق عليهم القيام بها أو السؤال عما لا يعني من أحوال الناس، بحيث يؤدي ذلك إلى كشف عوراتهم والاطلاع على مساوئهم، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُم تَسُؤْكُمْ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا لا تكثروا السؤال على رسول الله عن أمور لا فائدة لكم في السؤال عنها لأنه إن أظهرها لكم ساءتكم ووقعتم في الحرج والمشقة.

روي في أسباب نزول هذه الآية عن أبي هريرة قال: «خطبَنا رسول الله فقال: يا أيها الناس كتب الله عليكم الحج، فقام مِحْصن الأسديّ فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: أما إني لو قلتُ نعم لَوَجبت، ولو وَجَبت ثم تركتم لضللتُم، اسكتوا عني ما سكتُّ عنكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» فأنزل الله هذه الآية **﴿يأيها الذين آمنوا لا تسألُوا عَنْ أشياء...﴾** الآية.

ويروى أيضاً أن المسلمين سألوا النبي ﷺ حتى أكثروا عليه من السؤال، فقام مغضباً خطيباً فقال: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي إلاّ حدثتكم! فقام رجل فقال: من أبي؟ قال: أبوك حُذَافةُ. وكان هذا الرجل ينسب إلى غير أبيه، فكان ذلك فضيحة لأمه حيث قالت: ما رأيت أعقَّ منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس؟

فهذا تأديب من الله ونهي لهم أن يسألوا عن أمور لا فائدة في

السؤال عنها بحيث يؤدي السؤال إلى كشف مساوئهم.

وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «.. إن الله كره لكم ثلاثاً قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»[١].

وقال النبي ﷺ: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»[٢].

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك: **﴿وَإِنْ تَسألُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ القُرآنُ تُبْدَ لَكُم﴾** أي وإن تسألوا رسول الله عن أشياء نزل بها القرآن مجملة فتطلبوا بيانها وتفسيرها تُبَيَّن لكم حينئذ، ويظهرها الله ويبديها على لسان رسوله.

فالسؤال على قسمين: الأول، هو السؤال عن شيء لم يَرِدْ ذكره في القرآن والسنة فهذا السؤال مَنْهيّ عنه، الثاني: السؤال عن شيء نزل به القرآن ولكن السامع لم يفهمه فهنا السؤال واجب.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي عفا الله عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها. ويمكن أن يكون معنى عفا بمعنى ترك، أي ترك الله حكمها ولم يذكرها بشيء فلا تبحثوا عنها **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** والله كثير المغفرة واسع الحلم فلا يعجّل بالعقوبة من عصاه.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي سأل أمثال

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن والحاكم في المستدرك.

هذه الأسئلة قوم من الأمم السابقة قبلكم كقوم صالح سألوا نبيهم معجزة، فلما أُعطوها كفروا بها وقالوا ليست من عند الله، فأهلكهم الله بسبب كفرهم، وكقوم عيسى سألوا المائدة ثم كفروا بها، وكذلك بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم أشياء ويستفتونهم بها فإذا أُمروا بها تركوها فَحَلَّ بهم العذاب بسبب عصيانهم.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

شرح المفردات

يفترون على الله الكذب: يختلقون الكذب على الله.

حسبنا: كافينا.

عليكم أنفسكم: احفظوها من المعاصي وقوموا بصلاحها.

فينبئكم: فيخبركم.

تحليل ما حرمه أهل الجاهلية على أنفسهم

كان العرب قبل الإسلام يحرِّمون على أنفسهم الأكل من بعض لحوم الأنعام ويحرِّمون ذبحها بناء على أمور اختصت بها، ويحسبون أن ذلك هو من دين الله الذي يجب اتباعه، ولما جاء الإسلام بيّن فساد مزاعمهم، وأوضح لهم أن هذا التحريم الذي ألزموا أنفسهم به ليس هو من دين الله، بل هو من الأوهام والأباطيل التي شاعت بينهم، قال تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ﴾ أي ما شرع الله هذه المحرمات التي حرمتموها على أنفسكم وزعمتم أن الله حرمها عليكم وهي ما يلي:

البحيرة: وهي الناقة التي تلد خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً شَقُّوا أُذن الناقة وامتنعوا من ركوبها وذبحها والانتفاع بلبنها وسيّبوها لآلهتهم، ولا يُجزّ لها وبر، ولا يُحْمَلُ على ظهرها، ولا تُطرد عن ماء، ولا تُمنع عن مرعى.

السائبة: هي الناقة إذا ولدت اثنتي عشرة إناثاً من الولد ليس بينهن ذكر، فعند ذلك لا يُركب ظهرها ولا يُجزّ وبرها ولا يُشرب لبنها إلا للضيف.

الوصيلة: هي الشاة إذا ولدت سبعاً، عمد إلى السابع، فإن كان ذكراً ذُبح، وإن كان أنثى تُركت، وإن كان في بطنها اثنان ذكر وأنثى فولدتهما قالوا: «وصلت أخاها» فَيُتركان جميعاً لا يُذبحان.

الحام: هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون: حمي ظهره فلا يركب ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ والافتراء في القرآن هو الكذب القاطع، وما ذكر الافتراء إلا مقترناً بالكذب. والمعنى: أن الله لم ينشىء في شرعه شيئاً من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، ولكن الذين كفروا قد قالوا بهتاناً وكذباً على الله في ذلك، فحرّموا على أنفسهم ما أحلّ الله ونسبوا التحريم كذباً إلى الله تعالى، وما دفعهم إلى ذلك إلا أوهام سيطرت على عقولهم فهم لا يفكرون في أمورهم تفكير العقلاء. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ إنصاف للقلّة العاقلة التي لم تفعل فعلهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي وإذا قال قائل لهؤلاء الضالين: تعالوْا إلى ما أنزل الله في القرآن من الأحكام واعملوا بها، واتّبعوا الرسول محمداً فيما يبلّغكم إياه من شرع الله يوضحه لكم ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا من الدين ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ أي أيَكْفيهم ما وجدوا عليه الآباء من الدين؟ ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الدين الحق ولا يهتدون إلى سبيل الله؟! فإذا كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الدِّين الحق، فهل من العقل اتّباعهم والسير على خطاهم؟

والاستفهام في قوله تعالى ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ للإنكار والتوبيخ والعجب من جهلهم وتقليدهم الأعمى لآبائهم.

هكذا كان حال المشركين في زمن نزول القرآن وهو حال أكثر المتدينين في العالم الذين يسيرون على خطى آبائهم ولا يخالفونهم في

شيء ولو كانوا على ضلال. هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام يحرر الإنسان من التقليد الأعمى للآباء في شأن الدِّين الذي سار عليه آباؤه، والدعوة إلى النظر فيه نظرة عاقلة فاحصة، وهذا منهج فكري راقٍ سبق به الإسلام ما توصل إليه العقل البشري مؤخراً من الدعوة إلى التقصي عن الحقائق للوصول إلى ما تطمئن إليه النفس وتنساق إليه عن اقتناع ودليل.

وإذا تحرر الإنسان من العقائد الموروثة عن الآباء التي لا يقبلها العقل سهل عليه الوصول إلى الحقائق الثابتة من دين الله.

وبعد أن أنكر القرآن على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم واستمرارهم على ضلالهم، بيّن بعد ذلك أن المؤمنين لا يلحقهم إثم هؤلاء الضالين، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ خاطب الله المؤمنين بقوله: التزموا إصلاح أنفسكم واعملوا على خلاصها من عقاب الله، وانظروا إلى ما يقربكم من ربكم فإنه ﴿لا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لا يضركم من كفر وسلك غير سبيل الحق إذا أنتم اهتديتم وآمنتم بربكم وأطعتموه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه.

هذه الآية أخطأ البعض في فهمها، فقد رُوي أن أبا بكر الصديق قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها وإني سمعت رسول الله يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»[١].

(١) أخرجه الترمذي.

وقد قيل في هذه الآية ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ بأنها أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ تعني احفظوا أنفسكم من المعاصي وذلك يكونُ بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغّب بعضكم بعضاً في الخيرات، وينفّره من القبائح والسيئات، فكان ذلك أمراً بأن نحفظ أنفسنا من المعاصي ولا يكون الحفظ إلاّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقيل: إن الآية ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ خاص حكمها بالكفار الذين لا ينفعهم الوعظ ولا يتركون الكفر، فهنا لا يجب على المسلم أن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وقيل إن الآية ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ مخصوصة بما إذا خاف الإنسان عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نفسه أو على عرضه أو على ماله فهنا عليه إصلاح نفسه لا تضره ضلالة من ضل ولا جهالة من جهل.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ**﴾ أي إلى الله وحده مرجعكم ومصيركم في الآخرة فيخبر كل فريق منكم بما كان يعمله في الدنيا ثم يجازيه على حسب ما عمله من خير أو شر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

شرح المفردات

حَضر أحدكم الموت: ظهرت علاماته.

ضربتم في الأرض: سافرتم فيها.

أصابتكم مصيبة الموت: قاربتم انقضاء آجالكم.

تحبسونهما: تمسكونهما وتمنعونهما من الانطلاق والهرب وليس المراد به السجن.

إن ارتبتم: إن شككتم في صِدْق ما يقرّان به.

لا نشتري به ثمناً: لا نستبدل بالقسم بالله مغنماً من مغانم الدنيا.

فإن عُثِرَ: العثور على الشيء هو الاطلاع عليه من غير سبق طلب له.

الأوْلَيان: تثنية أوْلى أي الأجدر والأحق.

أدنى: أقرب.

تُردّ أيْمان بعد أيْمانهم: تُبطل أيْمانهم بعد أيْمان الورثة، والأيْمان: جمع يمين وهو القسم.

حكم الوصية للمحتضر وهو على سفر

ولما أمر الله المؤمنين فيما سبق بحفظ أنفسهم من الآثام وأنه لا يضرهم من ضلّ إذا اهتدوا، أمرهم في الآيات التالية بحفظ المال عن طريق الوصية التي تكون في سفر ويموت صاحبها. وقد قرّر علماء القانون الوضعي دقّة الإثباتات التي احتوت عليها هذه الآيات لما اشتملت عليه من أمور تحفظ الحقوق لأصحابها بما لا مثيل لها في القوانين المدنيّة، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا إذا قارب وقت حضور الموت أحداً منكم وظهرت علاماته عليه وكان يريد أن يوصي بشيء **﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُم أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُم﴾** أي فالشهادة بينكم على الوصية: هي شهادة اثنين من أصحاب العدالة والتقوى يُشهدهما الموصي الذي قاربه الموت على وصيته ويدفع إليهما أمواله لتسليمها إلى ورثته. وهذان الشاهدان يكونان منكم أي من أهل دينكم ـ يا معشر المؤمنين ـ أو آخران من غير دينكم عند تعذّر وجود المؤمنين **﴿إِنْ أَنْتُم ضَرَبْتُم فِي الأَرْضِ﴾** المراد به إذا سافرتم لأن المسافر يضرب في الأرض **﴿فَأَصابَتْكُم مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾** أي إذا شعرتم أن الموت سيصيبكم وسمّاه القرآن **﴿مُصيبة﴾** لأنه في حدّ ذاته مؤلم ويسبقه قلق.

وفي شهادة غير المؤمنين من أهل الكتاب اختلف الفقهاء في ذلك فذهب فريقٌ من الفقهاء والصحابة إلى أن شهادة أهل الكتاب جائزة على المسلمين في السفر عند عدم وجود المسلمين، وخالفهم الأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه فإنهم لا يقبلون شهادة غير المسلم على المسلم مطلقاً في سفر أو في حضر، وفي وصية أو غير وصية، وذهبوا إلى أن قوله تعالى **﴿مِنْ غَيْرِكُم﴾** منسوخ حكمه.

وعند دخول الشك والريبة في هذين الشاهدين على الوصية يقول تعالى: **﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ﴾** أي تمسكونهما وتمنعونهما من الانطلاق من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس، وكذا فعل رسول الله ﷺ في شأن بعض الأوصياء، وقيل بعد أي صلاة كانت لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق وناهية عن الكذب **﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُم﴾** أي يحلف هذان الشاهدان بالله أن شهادتهما حق وصدق عند وجود الريبة والشك عند الورثة **﴿لا نَشْتري[1] بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾** ويقول هذان الوصيان عند القسم بالله: لا نحصل بيمين الله عرضاً من أعراض الدنيا أو مغنماً منها ولو كان فيه نفع لأحد من أقاربنا **﴿وَلاَ نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ﴾** ولا نخفي الشهادة التي أمرنا الله بأدائها صحيحة، وأضيفت الشهادة لله لكونه هو الآمر بإقامتها والناهي عن كتمانها **﴿إِنَّا إِذاً لَمِنَ الآثِمِينَ﴾** أي أننا إذا أخفينا الشهادة أو قلنا غير الحق كنا من الآثمين المستحقين عقوبة الله.

---

(١) الشراء يطلق بمعنى البيع.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾ فإن اطلع وظهر على أن الشاهدين بعد أن حلفا استوجبا إثماً بسبب كذبهما وظهور خيانتهما ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِين اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ﴾ أي فرجلان آخران من الورثة والأحقان بالشهادة والوصية ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي يحلفان بالله قائلين: لشهادتنا أصدق وأجدر بالسماع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا الأمانة وكذبا الشهادة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي وما تجاوزنا الحق في يميننا وفيما نسبناه إليهما من خيانة، إننا إذا اعتدينا عليهما وقلنا فيهما خلاف الحق نكون من الظالمين المستحقين لسخط الله علينا.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أي ذلك التشريع الحكيم الذي شرعه الله هو أقرب إلى أن يأتي الأوصياء بالشهادة تامة كاملة. فكلمة ﴿على وَجْهِهَا﴾ في الآية المراد بها على أحسن الطرق فاسم الوجه في مثل هذا التعبير مستعار لأحسن ما في الشيء وأكمله تشبيهاً بوجه الإنسان الذي يتميز به عن سائر الأعضاء ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أو يخافوا أن يحلف غيرهم مظهراً خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا بردّ اليمين التي أقسموا بها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ واسْمَعُوا﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أحكامه ولا تحلفوا أيماناً كاذبة أو تخونوا الأمانة، واسمعوا ما توعظون فاعملوا به ﴿واللَّهُ لا يَهْدي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ والله لا يوفق من خرج عن طاعته وذلك بأن عصاه وحلف يميناً كاذبة.

روي في أسباب نزول هذه الآيات أن رجلاً مسلماً من بني سهم

اسمه بُدَيْل قد خرج للتجارة مع تميم الداريّ وعديّ بن بداء النصرانيين. فمرض بديل وكان معه في أمتعته إناء من فضة منقوش بالذهب قاصِداً به ملك الشام.

فلما اشتد مرضه وحضرت له مقدمات الموت أخذ صحيفة فكتب فيها كل ما عنده من المتاع والمال ودسّها بين أمتعته ودفع ما معه إلى تميم وعديّ وأوصاهما أن يسلما متاعه لأهله. ومات الرجل لكن الاثنين فتحا المتاع ووجدا فيه الإناء، فأخذاه وباعاه بألف درهم واقْتَسَما المبلغ وسلّما المتاع لأهل الميت الذين عثروا على الورقة المكتوب فيها كل التفاصيل بما فيها خَبَر الإناء الثمين، وسأل أهل الميت الشخصين اللذين تسلما المتاع عن الإناء فأنكرا أيّ معرفة به، فذهب أهل بديل إلى رسول الله ﷺ وشكوا إليه تميماً وعديًا فأحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتمتما الشهادة ولا كذبتما في قولكما ثم وجدوا الإناء بمكة، ولما سئل الذين وجد عندهم الإناء، قالوا: اشتريناه من تميم وعديّ، فجاء رجلان من ورثة بديل فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الإناء لصاحبهم، فردّ رسول الله الإناء إلى أهل بديل.



﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

شرح المفردات

يوم يجمع الله الرسل: يوم القيامة يجمع الله الرسل.

بروح القدس: الملك جبريل عليه السلام.

في المهد: في زمن الرضاعة قبل أوان الكلام.

وكهلاً: في حال اكتمال القوة.

الكتاب: الكتب السماوية، أو الكتابة.

الحكمة: العلم والتدبير وإصابة الحق.

تخلق: تصوّر.

الأكمه: من وُلِدَ أعمى.

والأبرص: المريض ببياض يظهر في ظاهر الجلد.

تُخرِجُ الموتى: تُخرج الموتى من قبورهم أحياء.

كففت بني إسرائيل عنك: صرفت عنك أذى بني إسرائيل حين تآمروا لقتلك.

سحر مبين: سحر بيّن واضح.

نعم الله على عيسى والمعجزات التي أيّده بها

وبعد أن أمر الله عباده بإقامة الشهادة على وجهها الصحيح وحذّرهم من الكذب وشهادة الزور أتبع ذلك تذكيرهم بيوم القيامة حيث يُحَاسَبُ فيه الناس على ما عملوا من خير أو شر:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ: مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي واذكر أيها الإنسان حين يجمع الله الرسل يوم القيامة فيقول لهم: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدي والإقرار بألوهيتي والعمل بطاعتي والانتهاء عن معصيتي، والمراد من سؤال الله للرسل هو تذكير الأمم بسابق فضله عليهم، وإقامة الحجة على الكافرين منهم **﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾** وعلاّم من صيغ المبالغة على وزن فعّال، أي أنت يا رب كثير العلم الذي يخفى علينا. وفي قول الرسل **﴿لا عِلْمَ لَنَا﴾** لم يكن منهم الإقرار بأن يكونوا غير عالمين بما عملت به أممهم ولكنهم ذهلوا عن الجواب من هول يوم القيامة، فنفوا عن أنفسهم العلم في حال ذهولهم، أو أنهم استحقروا علمهم بجانب علم الله، أو أن علمهم كان بمن عاصروهم لا بمن جاء بعدهم من الأمم، وقد كانت إجابة الرسل قمة الأدب مع الله تعالى.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ إذ: بدل من **﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾** وهو تخصيص بعد التعميم، وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل بالخطاب لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه غلوًّا وافتراءً، فالنصارى جعلوه إلّهاً واليهود كذّبوا نبوّته. فالله سبحانه يقول: اذكر يا عيسى إنعامي عليك وعلى والدتك، ونعمة الله على عيسى هي النبوّة، ونعمة الله على والدته السيّدة مريم هي أنه

سبحانه أنبتها نباتاً حسناً وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ﴿إِذْ أَيَّدتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وروح القدس هو جبريل عليه السلام ملك الوحي الذي يؤيد الله به الرسل بالتعليم الإلّهي والتثبيت في المواطن التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها، وهناك رأي آخر يقول: إن روح القدس هنا المراد به الروح الطاهرة المقدسة التي خصّه الله بها في قوله تعالى عن عيسى ﴿وروح منه﴾ وكلا الأمرين ينطبق على عيسى عليه السلام حيث كان متصفاً بالروح المطهرة وأيّده جبريل في سائر حياته ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ فأما تأييد الله له بعد ولادته ـ وذلك بأن جعله يكلم الناس وهو في المهد[1] وكان كلامه تأييداً لبراءة أمه من الفاحشة التي اتهموها بها، وأما تأييد الله لعيسى وهو كهل أي عندما كبر وصار رجلاً مكتمل الرجولة قادراً على تبليغ رسالة ربه بنزول الوحي عليه.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ أي واذكر يا عيسى نعمة الله عليك إذ علّمك الكتاب، والكتاب يفسره بعض العلماء بالكتابة فالكتاب مصدر كتب يكتب، فالله سبحانه ألهمه تعلّم الكتابة والقراءة، وقد يراد بالكتاب اسم جنس أي جنس الكتب الإلّهية السابقة التي علّمه الله إياها، كما علّمه الله الحكمة وهي العلوم النافعة والكلام المحكم الدقيق الذي يكشف أسرار الوجود، وعلّمه الله أيضاً التوراة التي أنزلها الله على موسى، والإنجيل الذي أنزله الله عليه. وذِكْرُ التوراة مقترنة بالإنجيل للإشارة إلى أنهما متلازمان وأن الإنجيل متمم للتوراة.

(١) المهد: مكان نوم الطفل عقب ولادته.

ولمّا كان البشر لا يصدقون بنبوّة نبي إلا إذا جاء بأشياء خارقة للعادة وهي المسماة معجزات، لذا أيَّد الله كل نبيّ بمعجزات تناسب عصره وما اشتهر به قومه. فعصر موسى اشتهر بالسحر فأيده الله بمعجزة تفوق السحر وهي عصاه التي تحولت إلى ثعبان وابتلعت سحر السحرة بجانب غيرها من المعجزات. وعصر عيسى اشتهر بالطب والعلوم والمعارف فأيده الله بما يفوق الطب البشري. وعصر محمد اشتهر ببلاغة الكلام وفصاحته والشعر والخطابة فأيده الله بالقرآن الذي هو أفصح كلاماً وأبلغ أسلوباً من كلام العرب. وفي الآية التالية يذكر القرآن بعضاً من المعجزات التي خص الله بها عيسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾:

فالله سبحانه يقول: واذكر يا عيسى وقت تأييدي لك حين وفّقتك لأن تخلق ـ أي تصور ـ من الطين صورة مماثلة لهيئة الطير فتكون طيراً بإذني ومشيئتي. وذُكرت كلمة ﴿بإذني﴾ أي بإذن الله عند تصوير شكل الطير وعندما صار طيراً للإشارة إلى أن كل ذلك من خلق الله، وأن عيسى ليس هو الخالق ولكن الله أجرى الخلق على يديه ﴿وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ وتشفي يا عيسى الأكمه ـ وهو من وُلِدَ أعمى ـ فتعود إليه نعمة النظر، كما تُشفي من أصيب بداء البرص بإذن الله تعالى ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ وحين تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون، كل ذلك بإذن الله ومشيئته وإرادته لبيان أن العمل ليس لعيسى ـ وإن جرى على يديه ـ وإنما هو لله سبحانه الذي شفى الأعمى والأبرص وأحْيَى الموتى.

وقد كانت هذه المعجزات التي أجراها على يدي عيسى كافية لأن يؤمن بنو إسرائيل بنبوته ويتبعونه، ولكن الكثير كفروا به وهموا بأذاه فمنع الله أذاهم عنه، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ﴾ أي واذكر يا عيسى نعمتي عليك حين منعت من أراد قتلك وإلحاق السوء بك من بني إسرائيل حين جئتهم بالمعجزات الواضحات **﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** أي ولكن الكافرين من بني إسرائيل لم يصدقوا بما جئتهم من معجزات واضحات بل قالوا: إنّ هذا الذي جئت به ما هو إلا سحر بيّن واضح، وبالأحرى لم يصدقوا بنبوتك.

هذا وقد اتخذ البعض من معجزات عيسى دليلاً على ألوهيته، ولكن القرآن نفى هذا الزعم عندما عقب على كل معجزة صدرت من السيد المسيح بقوله **﴿بإذني﴾** أي بإذن الله تعالى، أي إن هذه المعجزات هي من صنع الله الذي أظهرها على يدي رسوله عيسى عليه السلام تأييداً لرسالته وشاهداً على صحة نبوته. وإن النصوص الإنجيلية تؤكد هذه الحقيقة فقد جاء في سفر أعمال الرسل ما يلي:

«فقام بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وخاطبهم قائلاً...: يا رجال إسرائيل اسمعوا هذا الكلام. إن يسوع الناصري الرجل الذي أُشير لكم إليه من الله بالقوات والعجائب والآيات التي صنعها الله على يديه فيما بينكم كما أنتم تعلمون» [٢: ١٤، ٢٢].

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

شرح المفردات

الحواريون: أنصار عيسى وخاصته والمخلصون له.

مسلمون: منقادون لطاعتك.

هل يستطيع ربك: هل يستجيب لك ربك طلبك.

الشاهدين: الناظرين لها عياناً.

مائدة: هي الخوان الذي يوضع عليه الطعام.

وآية منك: معجزة منك.

المائدة التي أنزلها الله على عيسى

وبعد أن بيّن الله نعمه على عيسى بالنبوة وما أظهر على يديه من

معجزات تأييداً له، بيّن الله فيما بعد معجزة أخرى وهي إنزال مائدة من السماء وهي التي طلبها أنصار عيسى من نبيهم واستجاب الله لدعاء عيسى بإنزالها، وأنصار عيسى هم الحواريّون الذين استهل الله الكلام عليهم بقوله:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ والمراد بالوحي هنا الإلهام. والحواريون[1]: هم أنصار عيسى الذين آمنوا به ولازموه وصدّقوه. والقرآن لم يسمهم رسلاً وإنما النصارى سموهم رسلاً ليفصلوا مقامهم عن مقام عيسى عليه السلام حيث ادعى النصارى له الألوهية. وفي قوله تعالى في الآية ﴿وبرسولي﴾ إشارة إلى حقيقة مقامه من الله وانفصال شخصه عن ذات الله، وأنه لا يتجاوز عن كونه رسولاً من رب العالمين.

والمعنى: واذكر يا عيسى نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين المخلصين لك أن يؤمنوا بأني أنا الله الواحد الأحد المستحق للعبادة وأن يؤمنوا بك يا عيسى بأنك رسول من عندي فاستجابوا لنداء الله و﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي استجاب هؤلاء الحواريون لنداء ربهم الإلهامي وقالوا بكل يقين واطمئنان: آمنا بك يا رب بأنك واحد أحد، خالق كل شيء، وآمنا بأن عيسى رسول من عندك، واشهد علينا يا ربنا بأننا مخلصون لك بإيماننا.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ

(١) مادة الحور في اللغة تدل على الصفاء ونصوع البياض. وقال بعض العلماء: إنما سموا حواريين لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم.

عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ لقد كان الحواريون وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه يعرفون أنه بشر، وأنه ليس رباً، وليس ابناً لله لذا خاطبوه بالحقيقة التي يعرفونها عنه ﴿يا عيسى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وكان الحواريون يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع المعجزات على يديه وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة لذلك حين طلبوا أن ينزل عليهم المائدة قالوا ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ[1] أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ هنا يَرِدُ اعتراض: كيف يكونون مؤمنين ومع ذلك يتصورون احتمال ألاّ يستطيع الله تعالى إنزال مائدة من السماء؟ الجواب على ذلك أنهم لم يشكّوا في استطاعة الخالق لأنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، وإنما هو كقول الرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي بهذا العمل مع علمه بأنه يستطيع ذلك، أو أن سؤالهم للتثبت لا للنفي ولزيادة الطمأنينة في قلوبهم، ولعلّهم كانوا لقرب عهدهم بالجو الذي كان سائداً آنذاك وهو الاعتقاد بأن الأمور لا تحصل إلا بأسبابها المعهودة عند الناس، ولم يكن معتاداً أن تنزل مائدة من السماء يأكل منها الناس. كما أُجيب على سؤالهم هذا أيضاً بأن ما صدر منهم كان أول دخولهم في حظيرة الإيمان وقبل أن يتمكن الإيمان في قلوبهم.

وقد أجابَ عيسى على ما طلبه الحواريون منه: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي خافوا الله أن ينزل بكم عقوبة من عنده على قولكم

(١) اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿هل يستطيع ربك﴾ فقرأ جماعة من الصحابة والتابعين (هل تستطيع) بالتاء بدل الياء، وقراءة (ربك) بالنصب بمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك، أو هل تستطيع أن تدعو ربك.

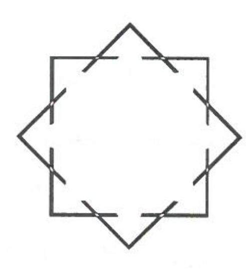
هذا إن كنتم مصدّقيّ في ما أتوعدكم به من عقوبة الله إياكم على شككم في قدرة الله، وفي الشك في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به.

ولكن القوم برّروا ما سألوا به نبيهم بقولهم: **﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾** أي أردنا أن نأكل من المائدة لحاجتنا إليها، ونعلم أيضاً قُدرة الله على كل شيء فتطمئن قلوبنا وتستقر على وحدانيته سبحانه وقدرته على كل شيء **﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾** أي نعلم علم اليقين أنك قد صدقتنا فيما جئتنا به من عند الله **﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** أي نشهد على حصولها عند الذين لم يحضروها ويروها من بني إسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقيناً، أو نكون من الشاهدين لها بأعيننا دون السامعين لخبرها من غيرنا، لأن الدليل الحسي المرئي أظهر في النفس وأشد في الإقناع **﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾** نادى عيسى ربه مرتين: مرة بوصف الألوهية **﴿اللَّهمَّ﴾** الجامعة لجميع الكمالات، ومرة بوصف الربوبية **﴿ربَّنَا﴾** المنبئة عن التربية للخلق إظهاراً لغاية الخضوع **﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾** والمائدة هي الخوان الموضوع عليه طعام والخوان تخت من خشب له قوائم ليوضع عليه الطعام للأكل، وقيل: المائدة اسم الطعام وإن لم يكن على خوان **﴿تكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾** والعيد اسم ليوم يعود كل سنة ذكرى لنعمة أو حادثة وقعت فيه للشكر وللاعتبار. أي يكون عيداً لأول أُمَّتِنَا وآخرها **﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾** وتابع عيسى قوله: وأن تكون المائدة معجزة من عندك

ودليلاً على صحة نبوتي **﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾** أي واجعل هذه المائدة رزقاً حسناً نأكل منه وأنت وحدك خير من يرزق وخير من يعطي وأجود من تفضل على الناس.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُم﴾ هذا وعد من الله بإنزال المائدة من السماء ولا يخلف الله وعده، وهو يقتضي أنه أنزلها **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُم فَإِنّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ﴾** أي فمن يكفر منكم بعد نزول هذه المعجزة وينكر نبوّة عيسى ويخالف طاعتي فيما أمرته به ونهيته عنه فإني أعذبه عذاباً لا أعذب مثله عذاباً أحداً من عالم زمانه. أي أن هذا العذاب يفوق العذاب الذي يعذب به الكفرة، وذلك لأنهم طلبوا هذه المعجزة وأنزلها الله بناء لطلبهم وشاهدوها بأم أعينهم، وأكلوا من طعامها، فأي برهان أقوى من ذلك للدلالة على قدرة الله وصدق نبوة عيسى.

أما صفة المائدة وأنواع الطعام التي تحتويها فلم يذكرها القرآن فلا حاجة للبحث عن ذلك، وكل ما قاله المفسرون في ذلك لا دليل قاطع لهم على قولهم.



﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

شرح المفردات

سبحانك: تنزيهاً لك يا رب عما لا يليق بك.

وكنت عليهم شهيداً: أي رقيباً، أو شاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان.

فلما توفيتني: أخذتني وافياً بالرفع إلى السماء حيًّا.

الرقيب عليهم: الحفيظ عليهم، المراقب لأعمالهم.

شهيد: المحيط علمه بكل شيء.

حوار بين الله وعيسى يوم القيامة

وبعد أن بيّن الله المعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام لإثبات نبوّته يأتي هذا الحوار البليغ الذي سيحصل يوم القيامة بين الله تعالى ونبيه عيسى عليه السلام، إنه حوار يظهر العظمة الإلّهية بأبهى صورها وينبىء أن القرآن ليس من كلام البشر، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ هذه الجملة وما بعدها معطوفة على قوله سبحانه من قبل ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ...﴾ [المائدة: ١١٠] أي يقول الله لعيسى ابن مريم يوم القيامة توبيخاً لقومه على رؤوس الأشهاد ومخاطباً له بنسبه الحقيقي فهو ابن مريم وليس ابناً لله **﴿أَأَنتَ قُلْتَ للنّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** أي هل أنت قلت لقومك اعبدوني أنا وأمي، واجعلوني مع أمي معبودين تعبدونهما من غير الله؟

وقد عاب الله على الذين اتخذوا عيسى إلهاً في هذه السورة في عدة مواضع منها، أما عبادة أمه فقد كانت معروفة في الكنائس الشرقية والغربية، وسمّي الذين عبدوها «المريميُّون»... وهذه العبادة منها: ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود، ومنها ما هو استغاثة، واستشفاع، ومنها ما هو صيام ينسب إليها، ويسمى صيام العذراء. وكل ذلك يقترن بخضوع وخشوع لذكرها ولصورها ولتماثيلها، مع اعتقاد بالسلطة الغيبية لها، وأنها تنفع وتضر في الدنيا والآخرة، إما بنفسها أو بواسطة ابنها ويسمّونها «والدة الإله».

ولما سأل الله عيسى: هل أنت قلت لقومك اتخذوني وأمي إلّهين؟ أجاب: **﴿قَالَ سُبْحَانَكَ ما يكونُ لي أنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لي بِحَقٍّ﴾** أي

تنزيهاً لك يا رب عن أن يكون معك إلّه آخر، ما ينبغي أن أدّعي لنفسي ما ليس من حقها، فأنا عبد مخلوق وأمي كذلك فكيف ندّعي الربوبية؟ ﴿**إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ**﴾ إذ لو كان قد حصل مني ذلك فإنك عالم به وهذا من ألطف الأجوبة وأوثقها ﴿**تَعْلَمُ ما في نفسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ**﴾ أي تعلم ما أقول وأفعل، ولا أعلم ما تقول وما تفعل. والنفس عبارة عن ذات الشيء، وذكر نفس الإنسان مقابل نفس الله هو من باب المقابلة والمشاكلة والله سبحانه ليس كمثله شيء ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ**﴾ إنك يا الله تعلم الأمور المغيبة عن أعيننا لا يخفى عليك شيء منها. وقد أكد عيسى علم الله للغيب بإن المؤكدة وبصيغة المبالغة لاسم الفاعل ﴿**علاَّم**﴾ وبلفظ ﴿**الغيوب**﴾ جمع غيب، أي العالِم بكل أنواع الغيب ما وقع في الماضي وما سيقع في المستقبل وما يتعلق بالكائنات جميعها.

﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاّ مَا أمَرْتَني بِهِ أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ أي ما قلت لهم يا رب إلا ما أمرتني بتبليغه لهم من توحيدك وعبادتك. فهذا القول هو في مقام إثبات الحجة عليهم وإقامة الدليل على استحقاق الله وحده للعبادة حيث قال ﴿**رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ لأنه وحده الذي خلقني وخلقكم فكيف يكون المخلوق إلهاً ﴿**وَكُنْتُ عَلَيْهِم شَهيداً مَا دُمْتُ فيهم**﴾ أي كُنتُ حفيظاً عليهم أرعى أحوالهم وأمنعهم من مخالفة أمرك مدة وجودي بينهم ﴿**فَلَمَّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم**﴾ والتوفي: يأتي بمعنى الموت، كما يأتي بمعنى: أخذ الشيء وافياً وهو المقصود هنا. والمعنى: فلما رفعتني إليك حياً مستوفياً ما قدرته لي إنجاء مما دبروه من قتلي، وقد جاء التوفي بهذا المعنى في قوله

تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ [آل عمران: ٥٥]. ويرى بعض العلماء أن رفع عيسى إلى السماء كان بعد موته، ومنهم من يرى أن رفع عيسى إلى السماء كان بالروح لا بالجسم. يقول الشيخ حسنين محمد مخلوف: «ولا يصح أن يحمل ـ أي التوفي ـ على الإماتة لأن إماتة عيسى في وقت حصار أعدائه له ليس فيها ما يسوغ الامتنان بها ورفعه إلى السماء بعد الموت جثة هامدة سُخفٌ من القول، وقد نزّه الله السماء أن تكون قبوراً لجثث الموتى، وإن كان الرفع بالروح فقط فأيّ مزية لعيسى في ذلك على سائر الأنبياء، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة، فالحق أنه عليه السلام رفع إلى السماء حياً بجسده، وقد جعله الله وأمه آية»[1].

وقد تضافرت الأخبار بأنه لم يمت وأنَّه باقٍ في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان.

ثم يختم عيسى قوله: ﴿**وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ**﴾ أي أنت يا رب شاهد لما كان وما سيكون، والعالم بكل شيء فلا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم أنهى عيسى حواره مع ربه بقوله: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ**﴾ أي إن تعذب يا رب من أقام على الكفر من قومي فإنما تعذب بالعدل من يستحق التعذيب منهم فإنهم عبادك وأنت مالكهم تتصرف بهم كيف تشاء وتحكم فيهم بما تريد ﴿**وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُم**﴾ وإن تصفح عنهم وتستر ما فرط منهم من ذنوب فذلك تفضل منك عليهم ﴿**فَإِنَّك أَنْتَ العَزِيزُ**

(١) في تفسيره (صفوة البيان لمعاني القرآن).

﴿الحَكِيمُ﴾ فإنك أنت القوي الغالب، الحكيم في تصرفك وصنعك.

هذه الآية: **﴿إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ...﴾** لها شأن عظيم وقد ورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قام إلى الصلاة وجعل يرددها في صلاته حتى الصباح، روى الإمام أحمد والنسائي عن أبي ذر قال: «صلّى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد **﴿إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُم عِبَادُكَ﴾** الخ.. فلما أصبح قلتُ: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت قال: إني سألت ربي الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً».

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أخبر الله أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم يوم القيامة.

والمراد بالصادقين الذين كانوا صادقين مع الله بإخلاص العبادة له وحده وعدم الشرك به وكانوا صادقين مع الناس جميعاً فلا يكذبون، ولا يغشون، ولا يظلمون أحداً ولا يخلفون موعداً مع أحد، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فهم صورة صادقة عن الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين.

هؤلاء الصادقون: **﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾** أي لهم جنات النعيم في الآخرة تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة **﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾** باقين فيها أبداً لا يزول عنهم نعيمها **﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾** أي نالوا الرضا من الله بما عملوا من الطاعات التي أمرهم بها، ورضوا عنه سبحانه بما جازاهم مما لم يخطر لهم على بال، ومما لا تتصوره عقولهم، والرضا من الله أرفع

درجات النعيم وأعلى منازل الكرامة **﴿ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾** أي دخولهم جنات النعيم وظفرهم برضاء الله هو الفوز العظيم الذي لا يفوقه فوز.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ أي إن الله سبحانه ملك السماوات والأرض وما فيها من المخلوقات يتصرف فيهم كيف يشاء إيجاداً وإفناء وإحياء وإماتة من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك **﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** وهو سبحانه قادر على كل شيء لا يعجزه شيء أراده، وهو لا يتقيد بالأسباب والمسببات. وقد جاء القرآن بهذه الخاتمة دفعاً لما سبق ممن ادعى الألوهيّة لعيسى وأمه، فأخبر سبحانه بأن له وحده ملك السماوات والأرض دون عيسى وأمه ودون سائر مخلوقاته.



المراجع

جامع البيان في تأويل القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

تفسير الكشاف للإمام الزمخشري

تفسير القرآن العظيم للعلامة ابن كثير

تفسير أبي السعود للعلامة محمد بن محمد العمادي

تفسير روح المعاني للعلامة الألوسي

تفسير اللباب في علوم الكتاب للإمام عمر بن علي الحنبلي

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطية

تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن للإمام أبي الطيب القنوجي البخاري

تفسير الخازن للإمام علاء الدين عليّ بن محمد البغدادي

صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف

تفسير سورة المائدة للإمام محمد أبو زهرة ـ مجلة لواء الإسلام ـ

تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي

التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي

تفسير القرآن الكريم ـ لجنة من الأساتذة ـ دار المعارف بمصر

أحكام القرآن لابن العربي

أحكام القرآن للجصاص

الفهرس

كلمة الشكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص.

وإلى فضيلة القاضي المستشار **الشيخ حسين غزال**

وفضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي **الشيخ شريف سكر**

اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير

وإلى الأساتذة:

د. هدى سنو

شفيق اللبان

د. محمد مرعشلي

على ما قدموا لي من معونة وما بذلوا من جهد في تصحيح هذا التفسير.

كما أقدم شكري **للأستاذ توفيق الحوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي على سعيه الدؤوب وتضحياته الجمة في إنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي، التي قدمت لي الكثير من المراجع المفيدة لهذا التفسير.

وأخيراً أقدم شكري لمكتبة **كلية الآداب في الجامعة العربية** ومكتبة **المعهد العالي** للدراسات الإسلامية **لجمعية المقاصد الإسلامية** على ما قدما لي من مراجع وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام.

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً إلى خدمة كتابه الكريم

عفيف عبد الفتاح طبارة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية
- روح القرآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف - مريم - طَه
- تفسير سُوَر: الحِجْر - النحل - الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف - الرعد - إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام
- تفسير سورة المائدة




هذا التفسير
• يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
• يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
• ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
• يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
• يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
• يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.
الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
ISBN 9953-63-175-1 دراسات اسلامية 4-544
9 789953 631752 2